من مواضيع سور القرآن الكريم
«٢»



تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

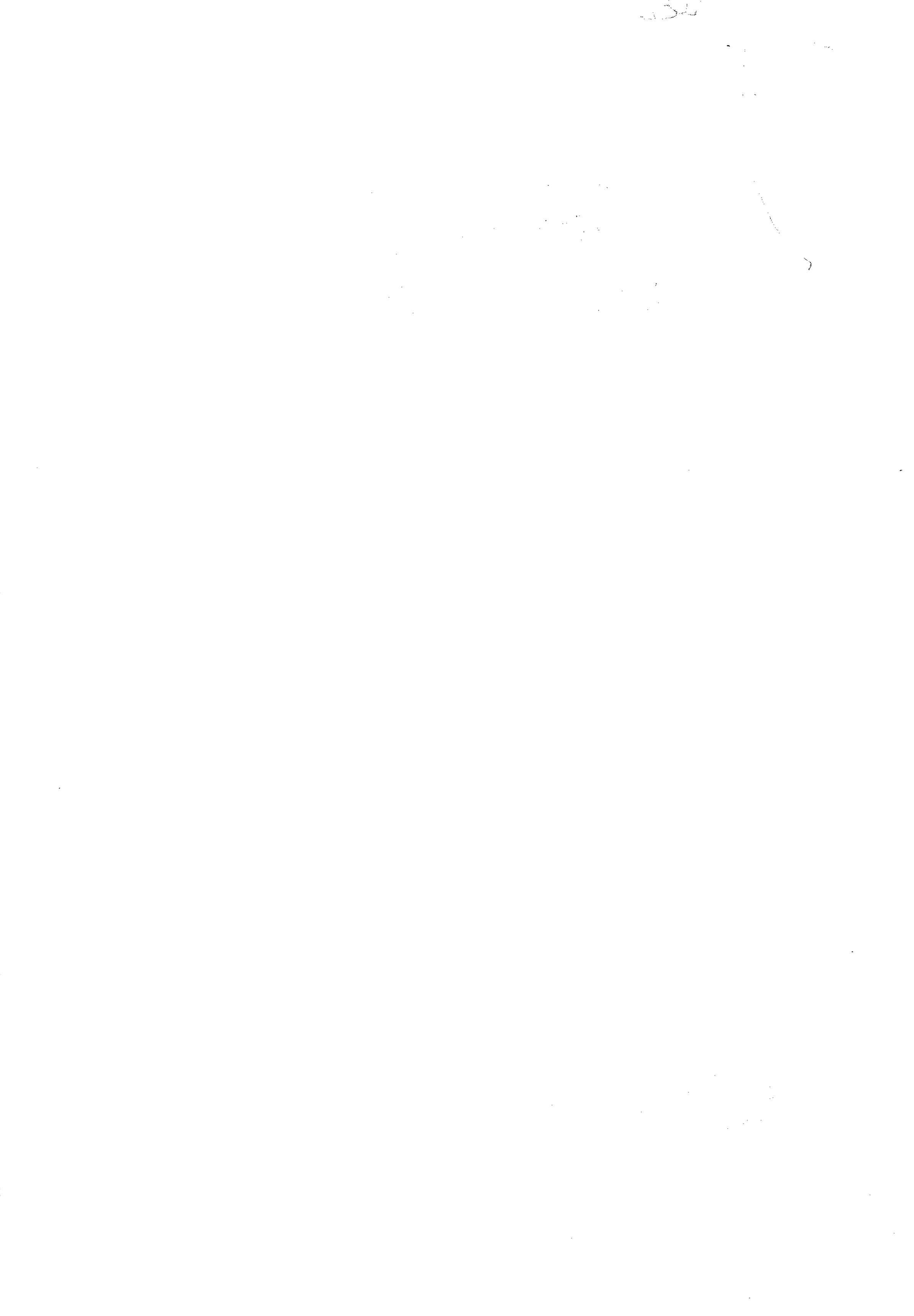
دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق

دار المنارة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص. ب. : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
دار المنارة
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب. : ١١٣/٦٥٠١ .


المعجزة والإعجاز
في
سورة النمل



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن من أعظم نعم الله تعالى على عباده المؤمنين أن أبقى لهم القرآن الكريم في الأرض، وحفظه سبحانه بمشيئته وقدرته، فلا تلحقه زيادة، ولا يعتريه نقصان، ولا يطرأ عليه تغيير أو تبديل، فهو محفوظ بحفظ الله تعالى في السطور والصدور مهما تقلبت عليه الأزمان ﴿وإنه لكتابٌ عزيزٌ. لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِه، تنزيلٌ من حكيم حميد﴾[1].

وهو حجة الله سبحانه البالغة على سائر الناس، كما أنه حجة المسلمين الكبرى على صحة دينهم وصدق نبيهم محمد ﷺ، وهو عصمتهم من الزلل، وأمان لهم من الزَّيْغ والانحراف، يتلونه فيسعدون بأنواره، ويتدبَّرون آياته فتنكشف لهم أسراره، لا تنتهي معانيه، ولا تنقضي عجائبه، ولا تُحصر معجزاته بعدٍّ، ولا يقف إعجازه عند حدٍّ.

وإنَّ هذا الكتاب دراسة لسورة من سورالقرآن الكريم،هي سورة النمل، من خلال موضوعها الأساسي الذي تدور آيات السورة كلها في

---

(١) ٤١ ـ ٤٢ سورة فصلت.

فلكه، وإني لأرجو الله تعالى أن أكون قدوُفقت إلى إظهار اتِّساق آيات القرآن الكريم فيما بينها، وهو وجه من وجوه إعجازه، من خِلالَ ما أراه من موضوع أساسي للسورة الكريمة، بأسلوب علمي وعملي.

وأسأل الله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجنبني الزلل والخطأ، كما أسأله عزّ شأنه أن يهديني فيه إلى طريق الرشاد والسداد.

اللهم آمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين.

الفقير إلى الله تعالى

عبد الحميد محمود طهماز

نزيل المدينة المنورة

المدينة المنورة

٨/ ٧/ ١٤٠٥ هـ

تَمْهِيد

لا بد لنا قبل الحديث عن موضوع سورة النمل أن نتحدث عن معنى كلمتين لهما علاقة وثيقة بموضوع السورة هما: المعجزة والإعجاز.



المعجِزة

المعجزة: هي كل أمر خارق للعادة مقرون بدعوى النبوة، وسمِّي مثل هذا الأمر معجزةلعجز الخلق عن فعله والقيام بعمل يماثله، لأنه خارق للعادة، أي مخالف للقوانين والنواميس الكونية التي ألفها الناس واعتادوا العيش في ظلها، مثل انقلاب العصا إلىٰ حية، وخلق ناقة من صخرة، وانشقاق القمر، وانفلاق البحر بضربة عصا ونبع الماء من الأصابع وغيرها.

ولا تسمَّىٰ مثل هذه الأمور معجزات إلا إذا خلقها الله سبحانه على يَدِ من يدَّعي أنه نبي، وهي في هذه الحالة تدل على صدقه في ادِّعاء النبوة، وتقوم مقام قول الله سبحانه: صدق عبدي فيما يقول. لأن مثل هذه الأعمال الخارقة لعادة الناس وما يحيط بهم من قوانين ونواميس لا يعطيها الله سبحانه إلا لمن اختاره واصطفاه لمقام النبوة، وكلَّفه بحمل رسالة يبلغها للناس ويدعوهم للإيمان بها، فلا يعقل أن يؤيد الله تعالى من يدَّعي النبوة كاذباً، وحاشاه سبحانه أن يؤيد كاذباً، فكيف يؤيد من يكذب عليه سبحانه.

وما بعث الله من نبي ولا أرسل من رسول إلا وأيده بمؤيدات تدل على صدق نبوته وصحة رسالته، وأنزل معه بيِّنات واضحات تكون له حجة على من بُعث فيهم وأرسل إليهم بحيث لا يبقىٰ لهم عذر في تكذيبه والإعراض عن التصديق برسالته والإيمان بدعوته، قال تعالى:

﴿ ألم يأتِكم نبأ الذين من قبلكم: قوم نوحٍ وعادٍ وثمود والذين من بعدهم، لا يعلمهم إلا الله، جاءتهم رسلُهم بالبيِّنات، فردُّوا أيديهم في أفواههم، وقالوا إنَّا كفرنا بما أُرسلتُم به، وإنَّا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾[1].

والآيات البينات هي الحجج والدلائل الواضحات القاطعات، كما قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره.

وقال رسول الله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أُعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنْ كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[2].

الكرامة والاستدراج

وقد يخلق الله سبحانه أحياناً خوارق العادات على يد غير مدَّعي النبوة، فإن كان هذا الإنسان صالحاً، كان ذلك إكراماً من الله سبحانه لهذا الإنسان الصالح، ويسمىٰ الأمر الخارق في مثل هذه الحالة باسم الكرامة، وتجمع على كرامات، لأنها دليل مادي يدل على إكرام الله سبحانه لمن خلق الله على يديه الأمر الخارق للعادة بسبب صلاحه وتقواه.

وأما إن كان غير صالح، كأن كان فاسقاً أو كافراً، فالأمر الخارق للعادة كيد واستدراج من الله سبحانه لهذا الذي أجرى على يديه بعض خوارق العادات، قال تعالى: ﴿ والذين كذبوا بآياتِنا سنستدرجُهم من حيث لا يعلمون. وأُملي لـهم إن كيدي متين ﴾[3].

---

(١) الآية ٩ إبراهيم.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) ١٨٢ - ١٨٣ الأعراف.

فلا يعرف صلاح الرجل وتقواه وموالاته لله سبحانه بما يجري الله تعالى على يديه من خوارق العادات، لأنه سبحانه وتعالى يجريها على يَدِ الصالح والطالح، فقد جاء في الأحاديث الصحيحة أنَّ الدجَّال عندما يظهر في آخر الزمان قبيل قيام الساعة يجري الله على يديه كثيراً من خوارق العادات، حتىٰ أن كثيراً من الناس يفتنون به، ولا ينجو من فتنته إلَّا قلة من الناس.

فالإنسان الصالح يُعرف بتمسكه بالكتاب والسنة، واستقامته على أمر الله سبحانه، وتطبيقه لسنة النبي ﷺ، فقد وصف الله سبحانه في التنزيل الحكيم أولياءه بصفتين، هما: الإيمان والتقوى، فقال عزّ وجلّ: ﴿ألَّا إِنَّ أولياءَ الله لا خَوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾[1]. ومما اشتهر على ألسنة العلماء قولهم: (لو رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء، فلا تغتروا به حتىٰ تنظروا كيف وقوفه عند الكتاب والسنة).

والفرق بين الكرامة والاستدراج يظهر في صاحبيهما، فصاحب الكرامة لا يستأنس بها، بل عند ظهور الكرامة يصير خوفه من الله تعالى أشد وحذره من قهر الله آقوى، لأنه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج، ولهذا ترى الصالحين حقاً يخافون من الكرامات كما يخافون من أنواع البلاء، وأما صاحب الاستدراج فإنه يستأنس بما يظهر على يديه من الخوارق، ويظن أنه يستحق ذلك، فيحتقر غيره ويتكبر عليه، ولا يخاف سوء العاقبة، لما يحصل له من الأمْن من مكر الله والانقطاع عن الله.

فأعظم علامات الولاية والصلاح الاستقامة على أمر الله سبحانه، فمن وفَّقه الله سبحانه للاستقامة على أمره والتمسك بسنة نبيه ﷺ فقد

---

(١) ٦٢ ـ ٦٣ يونس.

أكرمه أعظم كرامة، ولهذا قالوا: (الاستقامة عين الكرامة) ومصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿ إنَّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة: ألاّ تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾[1].

قدرة الله على خرق النواميس الكونية

وفي خرق الله سبحانه للنواميس والقوانين الكونية بخلقه لخوارق العادات من معجزات وكرامات وغيرها، دلالات كبيرة وعظيمة على قدرته سبحانه، فإن وجود هذه النواميس والقوانين التي ألف الناس الحياة في ظلها ليس لازماً ولا واجباً، وإن خلقها وإيجادها ليس قهراً ولا جبراً، بل خلقها الله سبحانه بمحض إرادته ومشيئته، وهو سبحانه قادر على إيجاد الخلق بدونها، أو مع نواميس وقوانين أخرى تخالف النواميس الكونية التي اعتاد الناس عليها، فقد اعتاد الناس على رؤية النار تحرق الأشياء التي تلامسها، ولكنه سبحانه خرق هذا الناموس عندما جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وهذا يدل على أنَّ النار لا تحرق بنفسها إلا إذا خلق الله سبحانه الإحراق فيها، وكذلك اعتاد الناس على أن الأنثىٰ لا تلد حتىٰ يلقحها الذكر، وخرق الله هذا الناموس الكوني بخَلْق عيسى عليه السلام من أم بلا أب وخَلْق آدم بلا أم ولا أب، ﴿ إنَّ مَثَلَ عيسىٰ عند الله كمثل آدمَ، خلقه من تراب ثم قال له كُنْ فيكون ﴾[2].

وهكذا بيّن الله سبحانه لنا بخلقه لخوارق العادات عظيم قدرته

---

(١) ٣٠ فصلت.

(٢) ٥٩ آل عمران.

وبديع صنعته، كما بين لنا أنَّه سبحانه وحده الخالق لهذا الكون والمدبِّر لأموره، فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته وقدرته، وأن خلق هذه النواميس والقوانين وجعلها أسباباً لغيرها من المسببات ليس لازماً، فلا تأثير للأسباب بمسبباتها إلا بقدرته سبحانه ومشيئته، فارتباط الأسباب بمسبباتها ارتباط وجودي فقط، فالله سبحانه عوَّدنا على خلق المسببات عندما توجد بقدرته ومشيئته أسبابها، وهو سبحانه قادر على خلق الخلق بدون ما تعود الناس رؤيته من أسبابها ﴿ إنَّما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون ﴾[1].

عجز الإنسان عن خرق النواميس الكونية

وإنَّ عجز الناس عن خرق النواميس والقوانين الكونية لهذه الحياة وقدرته سبحانه على خرقها، يجعل الناس يستشعرون فقرهم واحتياجهم إليه سبحانه، فمن النواميس الكونية التي تتصل بالإنسان وحياته أنه سبحانه يخلق الإنسان في أول أمره ضعيفاً في غاية الضعف، ثم يمده بأسباب الحياة حتىٰ يصبح قوياً، ثم بعد ذلك يردّه إلى الضعف والموت، فهل رأيتَ إنساناً يستطيع أن يخرق هذا الناموس الكوني مهما أوتي من أسباب القوة والعلم؟ ﴿ الله الذي خلقكم من ضَعْف، ثم جعل من بعد ضَعْف قوةً، ثم جعل من بعد قوة ضَعْفاً وشَيْبة، يخلق ما يشاء، وهو العليم القدير ﴾[2].

وانظر إلىٰ نبي الله إبراهيم كيف أقام الحجة على إنسان مغرور متكبر متجبر بسبب ما كان يملك من أسباب الملك والغنىٰ والقوة، حتىٰ ادّعى لنفسه القدرة على التصرف بالحياة والموت، فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا أن تحدَّاه أن يغير ناموساً من نواميس الحياة في هذا

---

(١) ٨٢ يٓس.

(٢) ٥٤ الروم.

الكون، فعرّفه بهذا التحدِّي مقدار ضعفه، وبيّن له ضآلة حجمه ﴿ ألم ترَ إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه أنْ آتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم ربيَ الذي يحيي ويميت، قال أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم فإنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبُهِتَ الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[1].

(١) ٢٥٨ البقرة.

الإعجاز

الإعجاز: إثبات العجز وعدم القدرة، فالعجز ضد القدرة، والإعجاز يثبت قدرة المعجز، والمراد من الإعجاز في القرآن الكريم إثبات عجز الخلق عن معارضة القرآن الكريم، وإظهار قدرة المعجز وهو الله سبحانه وتعالى الذي أنزل القرآن الكريم على النبي ﷺ، وبهذا تقوم الحجة على المعارضين لدعوة النبي ﷺ، ويكون القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ الكبرى التي تدل على صحة نبوته وصدق رسالته عليه الصلاة والسلام.

وقد تحدَّى القرآن الكريم الإنس والجن تحدياً يظهر عجزهم عن معارضته مجتمعين، فما بالك إذا كانوا متفرقين، قال تعالى: ﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[1] وليس صحيحاً قول من يقول: إنَّ التحدي إنما وقع على الإنس دون الجن، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربي الذي جاء القرآن على أساليبه، وإنما ذكروا في آية التحدي تعظيماً لإعجاز القرآن، والمعنى: أنه لو فرض اجتماع الإنس والجن لعجزوا عن المعارضة.

ولعل صاحب هذا القول قد نسي أنَّ في الجن من يتكلم العربية

---

(١) ٨٨ الإسراء.

وينطق بها ويعرف أساليبها كالإنس، والدليل على ذلك أن فريقاً من الجن لما سمعوا القرآن الكريم أنصتوا له، وأعجبوا به، وتأثروا عند سماعه، وقالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً، جاء ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ قل أوحي إليَّ أنَّه استمع نفرٌ من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وأنَّا لما سمعنا الهدى آمنَّا به، فمن يؤمنْ بربِّه فلا يخاف بَخْساً ولا رَهَقاً ﴾[1]. وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿ وإذ صَرَفْنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا: أنصتوا، فلما قُضي وَلَّوا إلى قومهم مُنْذِرين. قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدِّقاً لما بين يديه، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾[2] فالتحدِّي في القرآن الكريم موجَّه للإنس والجن عموماً، وإذا أظهر التحدي عجز العرب عن معارضته ـ وهم أهل اللسان والفصاحة والبيان وفيهم فرسان الفصاحة من شعراء وخطباء وحكماء ـ فغيرهم من الأمم الأعجمية أعجز.

ووجوه الإعجاز القرآني ليست قاصرة على إعجازه البياني في بلاغته وفصاحته ونَظْمه البديع وجَرْسه، إنما للإعجاز القرآني وجوه كثيرة هي دائماً في ازدياد واضطراد مع توالي العصور وكرِّ الدهور، ففي كل عصر ينكشف وجه جديد لإعجاز القرآن الكريم، ويظهر للناس عَلَمٌ جديد من أعلام صدق معجزة النبي ﷺ وصحة رسالته، وهذا يؤكد خلود المعجزة القرآنية الكريمة، وأنها باقية أبداً تتحدَّى الإنس والجن في كل عصر ومصر.

الحد الأدنى المعجز من القرآن الكريم

وأسلوب القرآن الكريم في تحدِّي المعارضين له يدل على

---

(١) الآيات ١ ـ ٢ ـ ١٣ من سورة الجن.

(٢) ٢٩ ـ ٣٠ الأحقاف.

شدة عجزهم وضعفهم عن معارضته، ويبين المقدار المعجز من القرآن الكريم، فقد تحدَّاهم أولاً بأن يأتُوا بمثله كما مرَّ معنا في آية تحدِّي الإنس والجن، وذكر هذا التحدِّي في قوله عزّ وجلّ: ﴿ أم يقولون تَقَوَّله بل لا يؤمنون. فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾[1]، ولمَّا ظهر عجزهم عن معارضته بهذا المقدار تحدَّاهم بمقدار جزء منه فقال تعالى: ﴿ أم يقولون افتراه، قل فأتُوا بعشر سور مثله مُفْتريات، وادعُوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله، وأنَّ لا إلَه إلا هو، فهل أنتم مسلمون ﴾[2]، ولما ظهر عجزهم وضعفهم عن معارضته أيضاً تنزَّل في تحدِّيهم إلىٰ مقدار سورة من سور القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ وما كان هذا القرآنُ أن يُفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثلِه، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[3].

والجدير بالذكر أن آيات التحدِّي كلها جاءت في السور المكية، ثم جاء التأكيد على قيام التحدي وبقائه بمقدار سورة واحدة في سورة مدنية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في رَيْب ممَّا نزَّلنا على عبدنا فأتُوا بسورة من مثلِه، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ـ ولن تفعلوا ـ فاتقوا النار التي وقُودها الناس والحجارة أُعدَّت للكافرين ﴾[4] ومع هذا التحدِّي جاء الإخبار عن عجزهم حاضراً ومستقبلاً، وهذا يؤكدأن القرآن كلام الله سبحانه، فمثل هذه الثقة

---

(١) ٣٣ ـ ٣٤ الطور.

(٢) ١٣ ـ ١٤ هود.

(٣) ٣٧ ـ ٣٨ يونس.

(٤) ٢٣ ـ ٢٤ البقرة.

الحازمة الجازمة في الإخبار عن عجزهم أبداً مهما تقلَّبت الأيـام، وتطاولت الأزمان، وامتد عمر الإنسان، وتشعبت علومه وازدادت معارفه وفنونه، دليلٌ قاطعٌ على أنه كلام الله، وأن الإنسان سيبقىٰ عاجزاً عن معارضة سورة واحدة من سور القرآن الكريم، فلا قدرة لبشر علىٰ مثل هذا، لأنه كلام الله سبحانه العليم الحكيم الخبير.

وأصغر سور القرآن الكريم سورة الكوثر، وسورة العصر، فالحدُّ الأدنىٰ المعجز من القرآن الكريم مقداره سورة الكوثر أو سورة العصر، ورحم الله الإمام الشافعي القـائل: (لـو تدبَّـر الناس سـورة العصر لكفتهم).

من وجوه إعجاز القرآن الكريم

وإعجاز القرآن الكريم ليس قاصراً علىٰ بلاغة كلامه وفصاحة بيانه، ونَظْمه البديع وأسلوبه الرفيع، وتناسق آياته وسوره وتراكيبه وألفاظه وحروفه، وعذوبة جَرْسه في الآذان، وإنما هو معجز في معانيه التي لا تنتهي، فلم يشبع منه العلماء حتىٰ الآن، بل هو دائماً يانع طيب لا يَخْلَق على كثرة الردِّ، ولا تُحدُّ معانيه بحد، وهو معجز أيضاً في إخباره عن المغيبات الماضية والمستقبلة، وما أكثرها فيه، وفي سموِّ تشريعه وقوة حججه وبراهينه، وهو معجز أيضاً في إشاراته العلمية التي يكتشف العلماء كل يوم دليلاً يثبت صحتها، ولا يزال الإنسان يزداد يقيناً بأن القرآن كلام الله لما يرىٰ فيه من الحقائق العلمية الباهرة والدرر اليقينية الآسرة، وإنه معجز في تكامل موضوعاته وتناسقها رغم كثرتها وكثرة فروعها، فلا ترىٰ أي تعارض بين آياته وسوره وموضوعاته ومعانيه، والله سبحانه يدعو الخلق أن يتدبَّروا معاني القرآن الكريم ويتفحصوها ويتأملوا فيها، كأنه سبحانه يتحداهم أن يجدوا فيها أدنىٰ تعارض، أو يلمسوا في مبانيه وتراكيبه أي انحطاط عن مرتبته العالية في البلاغة والفصاحة، مثل

قوله تعالى: ﴿ أفلا يتدبَّرون القرآن أم علىٰ قلوب أقفالُها ﴾[1] وقوله أيضاً: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[2]. فهو كما وصفه الله تبارك وتعالىٰ: ﴿آلر كتاب أُحكمت آياتُه، ثم فُصِّلت من لَدُنْ حكيم خبير ﴾[3].

وإنه لمعجز أيضاً في نزوله علىٰ رسول الله ﷺ منجَّماً ومقسماً بحسب وقائع النزول وأسبابها ومناسباتها، ثم في تآلف آياته وسوره بعد ذلك وانسجامها فيما بينها، كما أنه معجز في تناسق وتلاؤم مبانيه وتراكيبه مع معانيه، بحيث يدهش قارئه ويجذب سامعه ويبهر متدبر آياته ومتفحص كلماته.

---

(١) ٢٤ محمد.

(٢) ٨٢ النساء.

(٣) ١ هود.

مِن معجزات النبي ﷺ الحسية

وليس القرآن الكريم هو وحده المعجزة التي أيَّد الله سبحانه بها النبي ﷺ، فلقد أجرىٰ الله سبحانه علىٰ يد النبي ﷺ معجزات حسية كبيرة أكثر مما أعطىٰ غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، ولئن حوَّل الله سبحانه لموسىٰ العصا إلى ثعبان، فقد حوَّل الله لنبينا ﷺ كثيراً من الجمادات إلىٰ مخلوقات ناطقة كلَّمت النبي ﷺ وشهدت له بالنبوة والرسالة، كالحجر الذي كان يسلِّم علىٰ النبي ﷺ.

أخرج الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله.

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: إنَّ بمكة حجراً كان يسلِّم عليَّ لياليَ بُعثتُ، إني لأعرفه الآن.

والحصى الذي سبَّح وهو في يديه عليه الصلاة والسلام وأيدي بعض أصحابه، والطعام الذي أسمع الله سبحانه تسبيحه الصحابة وهم يأكلونه مع النبي ﷺ.

أخرج البخاري والترمذي والنسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه: كنَّا مع النبي ﷺ في سفر، فقلَّ الماءُ، فقال: «اطلبوا فَضْلَةً من ماء» فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل النبي ﷺ يده فيه ثم قال: «حيَّ

على الطهور المبارك، والبركة من الله تعالى» فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابعه، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

وقد رُوي هذا الحديث عن عدد كبير من الصحابة.

وجذع النخلة الذي حَنَّ إلىٰ النبي ﷺ، وكان ﷺ يخطب إليه فتحوَّل عنه إلى المنبر الذي صنع من أجله، فحنَّ إلىٰ النبي ﷺ بصوت سمعه كل من في المسجد، وكالشجرة التي جاءت تشق الأرض بعروقها إلىٰ النبي ﷺ لتشهد له بالنبوة كما جاء في صحيح مسلم.

ولئن شقَّ الله سبحانه لموسىٰ عليه السلام البحر فقد شقَّ الله لنبينا ﷺ القمر إلىٰ فلقتين، كما شق له الفضاء، وفتح لـه أبواب السماء، ورفعه فوق السموات وأدخله الجنة، وأراه النار، وكل ذلك جاء في صحيح الأخبار والآثار، وقد بلغ أكثرها مبلغ التواتر الذي يفيد العلم القطعي بوقوعها، كما أن بعضها ذكره القرآن الكريم صراحة، مثل معجزة انشقاق القمر، ومعجزة الإسراء، وبعضها أشارت إليه الآيات الكريمة إشارة، مثل معجزة المعراج إلى ما فوق السموات العلىٰ في الآيات الأول من سورة النجم. ولئن أنبع الله سبحانه لموسىٰ الماء من الحجر، وهو معدنه، فقد أنبع الله سبحانه لنبينا ﷺ الماء من بين أصابعه الشريفة حتىٰ شرب كل من كان معه وتوضأوا وملأوا أسقيتهم وأوعيتهم.

وما أكثر المغيبات المستقبلة التي أطلع الله النبي ﷺ عليها، وقد أخبر عنها ﷺ ووقع كثير منها كما أخبر عليه الصلاة والسلام.

أخرج البخاري عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: بينما أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ـ الفقر ـ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أُنبئت عنها، فقال: فإن طالت بك حياة لترينَّ الظعينة[1] ترتحل

---

(١) المرأة المسافرة.

من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله ـ قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعّار طيء الذين سعروا البلاد ـ ولئن طالت بك حياة لتفتحنَّ كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترينَّ الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه.

قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لتروُنَّ ما قال أبو القاسم ﷺ، يخرج الرجل ملء كفه ذهباً أو فضة فلا يجد من يقبله.

وقد وقع هذا في خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

وإن تتابع الزمان ليزيدنا إيماناً بصحة نبوته وصدق رسالته عليه وآله الصلاة والسلام في كل ما جاء به وأخبر عنه[١].

وإنَّ كل هذه المعجزات انتهت بوفاته عليه الصلاة والسلام وبقي القرآن الكريم بعده عليه الصلاة والسلام حجة ناطقة في فم الزمن، تشهد بصدق نبوته عليه الصلاة والسلام وصحة رسالته، كما تشهد بخلودها وبقائها، وأنها الدين التي تعبَّد الله به الخلق إلى قيام الساعة، لا يقبل الله من أحد ديناً آخر غير دين الإسلام وشريعة القرآن.

---

(١) لعل من أشهر المغيبات التي أخبر عنها ﷺ قتال المسلمين لليهود، فقد صحَّ الحديث عنها، وهو في الصحيحين وغيرهما من كتب السنن، وهي في العصر الحاضر حقيقة يستشعرها كل المسلمين.


المعجزة والإعجاز
في
سورة النمل



سُورَةُ النَّمل

لم تُسمَّ السورة بهذا الاسم لمجرد أن ذُكر النمل في آية من آياتها هي قوله تعالى: ﴿حتى إذا أتَوا علىٰ وادِ النمل قالت نملةٌ: يا أيها النملُ ادخلوا مساكنكم لا يَحْطِمَنَّكم سليمانُ وجنودُه وهم لا يشعرون﴾[1].

فقد ذكر الله سبحانه في السورة أسماء متعددة لبعض مخلوقاته من الجن والإنس والطير، فلا بدَّ أن يكون اختيار اسم النمل لهذه السورة لحكم كثيرة لا يعلمها علىٰ الحقيقة إلا الله سبحانه، وهو سبحانه أعلم بمراده وأسرار كتابه، ولعل من هذه الحكم أنَّ المتأمل للنمل يجد فيه دلائل كثيرة تدل علىٰ وجود الله سبحانه، وتبين عظيم قدرته وباهر حكمته وبديع صنعته.

هذا خلق الله

إنَّ أي دارس للنمل وأنواعه وطرق معيشته والخصائص الكثيرة والكبيرة التي جعلها الله سبحانه في هذه الحشرة الصغيرة، يقف مدهوشاً حائراً أمام قدرة الخالق العظيم وحكمته الكبيرة، إنَّ هداية الله سبحانه النمل إلىٰ بناء حياته الاجتماعية علىٰ أساس وطيد دقيق من التضامن والتعاون والتخصص، يملأ قلب الإنسان خشوعاً وخضوعاً أمام قدرة

---

(١) الآية ١٨ النمل.

الخالق البارىء سبحانه، وعظيم حكمته، وبديع صنعته ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه، بل الظالمون في ضلال مبين﴾[1] ولكي نكـون موضـوعيين وواقعيِّين علينا أن نـرجـع إلىٰ المختصين والدارسين للنمل وخصائصه لنقف علىٰ نتائج دراساتهم وبحوثهم في هذا المجال.

تحدث فريد وجدي في دائرة معارفه عن النمل فقال: (النمـل لقيام أموره علىٰ الاجتماع والتضامن لا يعيش إلا في قرىً صغيرة، وإن أعمال النمل تدل علىٰ أنها متمتعة بدرجة رفيعة من العقل وبغرائز عظيمة للاجتماع والتضامن في الحياة، ويرجِّح أنَّ لها لغة خاصة تتفاهم بها، وهو ما لم يشاهد مثله لغيرها من الحيوانات)[2].

وأفاض الشيخ العلامة طنطاوي جوهري رحمه الله في الحديث عن النمل وصفاته ومزاياه، ونقل في تفسيره المسمىٰ ﴿الجواهر في تفسير القرآن الكريم﴾ كثيراً من ملاحظات العلماء حول النمل والوقائع والقصص المشاهدة في عالم النمل حتىٰ أصبح ما كتبه في تفسير سورة النمل يعد شيئاً يسيراً بجانب ما كتبه عن صفات النمل وخصائصه، وفيما يلي بعض ما ذكر عن النمل.

تخزين الطعام

ومن حكمة النمل أن الحبوب المخزونة عندها إذا أصيبت بماء المطر تنشرها أيام الصحو، وأنها تقطع حبة القمح نصفين حتىٰ لا تنبت، وتقشِّر حبات الشعير والباقلا والعدس لكي لا تنبت، وتقطع حبة الكزبرة أربع قطع لأنها إذا قطعت قطعتين نبتت بخلاف القمح، فكيف عرف النمل جميع هذا!؟.

---

(١) ١١ لقمان.

(٢) انظر دائرة معارف وجدي ط. ٢.

عمل نملة في يوم

قضى أحد العلماء طول حياته في النظر في حال هذه الكائنات الصغيرة، فشاهد نملة تشتغل طول يومها، فحَسَبَ ما حفرته وبنته في ذلك اليوم ونسبه إلى جسمها وإلىٰ شغل الإنسان وجسمه، فوجد أنها لو كانت رجلاً مشتغلاً هذا الشغل لحفر خليجين كل منهما طوله اثنان وسبعون قدماً وعمقه خمسة إلىٰ أربعة أقدام، وصنع طيناً وجعله آجرّاً، وبنىٰ به أربعة حيطان علىٰ جوانب الخليجين ارتفاع كل حائط منها قدمين إلىٰ ثلاثة، وبسمك مقداره خمس عشرة بوصة.

أكبر مدن النمل

● وفي جبال بنسلفانيا إحدىٰ الولايات المتحدة الأمريكية أكبر مدن النمل في العالم، ومعظمها مبنية تحت الأرض وأكبرها يشغل ثلاثين فداناً حفرت فيها منازل النمل تتخللها الشوارع والمعابر والطرق، وكل نملة تعرف طريقها إلىٰ بيتها بإحساس غريب.

وتشتمل كل قرية من قرىٰ النمل علىٰ الطبقات التالية:

١ ـ باب التهوية.
٢ ـ مكان الحرس لمنع دخول الغريب.
٣ ـ أول طبقة لراحة العاملات في الصيف.
٤ ـ مخزن ادخار الأقوات.
٥ ـ مكان تناول الطعام.
٦ ـ ثكنة الجنود.
٧ ـ الغرف الملوكية حيث تبيض ملكة النمل.
٨ ـ اصطبل لبقر النمل وعلفه.
٩ ـ اصطبل آخر لحلب البقر.
١٠ ـ مكان تفقيس البيض.

١١ ـ مكان تربية صغار النمل.
١٢ ـ مشتىٰ النمل، وفي يمينه جبانة لدفن من يموت.
١٣ ـ مشتىٰ الملكة.

من معارك النمل

جاء في الجرائد المصرية يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦ م العنوان التالي: ـ حرب بين قبيلتين من النمل ـ.

في الشهر الفائت جرت معركة هائلة بين قبيلتين من النمل في حديقة الحيوانات في لندن، اشترك فيها نحو ألف نملة من الجانبين، ودامت أربعة أيام، وانتهت بمئات القتلى والجرحى، وذكر صاحب المقال أن سبب المعركة أن نملة دخلت في قرية مجاورة لقريتها، فأخذها الحرس فأسروها وقتلوها، فأرسلت القرية المجاورة قبل الهجوم عشر نملات لاستطلاع الطريق حتى لا يفاجأن بوجود الكمائن، ثم بعد أن رجعن إلى قريتهن بدأ الهجوم، واستمر القتال أربعة أيام لم يتوقف خلالها سوى بضع ساعات، كهدنة بين الطرفين، وانتهت المعركة بانتصار القبيلة المهاجمة واحتلالها للقرية المجاورة وقتل وأسر كل النمل الذي فيها[1].

أنواع النمل ووسائل التعارف بينهم

وذكرت مجلة المعرفة أن هناك حوالي ثمانية آلاف نوع من النمل، ومن المؤكد أن النمل هو أكثر الحشرات المعروفة ذكاء إذ توجد لديه بعض القدرة على التعلم، ويعيش النمل في مجتمعات كبيرة تشبه إلىٰ حدٍّ ما البلاد أو المدن التي يقطنها الإنسان، وتعيش جميع أنواع

(١) انظر الجواهر في تفسير القرآن الكريم.

النمل بهذه الطريقة يشاركها في هذا بعض أنواع النحل والزنابير، وتتميز النملة بوجود جهاز عصبي متميز مكون من عقد مخية في الرأس، وقد ساعد هذا أن يكون مسلكها واضح الذكاء والتعقيد، وتعتبر اللوامس أو قرون الاستشعار أكثر الأعضاء الحسية للنملة أهمية، وهي أعضاء مركبة خاصة للشم وللمس، فعندما يتقابل عدد من أفراد النمل يتفحص كل منها الآخر خلال تلامس قرون الاستشعار، ونحن لا نعلم كثيراً عن القدرة السمعية للنمل، ومع هذا يمكنها التعرف علىٰ الذبذبات.

ماشية النمل

ونـلاحظ قـيام الشغالة من النمل بأعمال غاية في التخصص بطرق المعيشة الخاصة التي تحياها، فهناك نمل يمارس الزراعة ويزرع المحاصيل ويربي الماشية، وماشية النمل نوع من الحشرات الصغيرة السوداء التي تعيش ملتصقة علىٰ أغصان الأشجار، إن النمل يقوم علىٰ تربية هذه الحشرات ويحملها شتاء إلىٰ مساكنه ويغذيها، ويحملها في الفصول الأخرىٰ إلىٰ الأشجار لتتغذىٰ وتنمو وتفرز مادة حلوة يحبها النمل ويتغذىٰ بها، وإذا أرادت النملة من حشرة من هذه الحشرات أن تفرز لها هذه المادة الحلوة ضربتها ضربات خاصة، فتستجيب لها وتفرز لها ما تريد، ولم يستطع أحد العلماء أن يجعل هذه الحشرة تفرز هذه المادة بضربها بواسطة شعيرات تشبه لوامس النمل.

كما يوجد في النمل من يختزن الطعام، ومنه من يقوم بأعمال هندسية غاية في البراعة والذكاء؛ وإن مساكن النمل وطريقة بنائها لتدل علىٰ ذلك، وقد شوهد في إفريقية نمل يصنع جسوراً لعبور السواقي والموانع المائية.

وللنمل نزعة عدوانية، فهو يميل إلىٰ القتال مع أمثاله من النمل، فقد لوحظ أنه يشتبك فيْ الحروب ويستعبد أنواعاً أخرىٰ من النمل،

يأخذها أسرىٰ ويكلفها بالعمل بدلاً منها، ويكاد يكون النمل في حرب مستمرة مع أفراد العشائر الأخرىٰ، ويتعرف أفراد العشيرة الواحدة علىٰ بعضه بعضاً خلال رائحة عُشيَّة مميزة، وقد سبق وصف معركة من معاركه[1].

سيريكم آياته فتعرفونها

ليس عجيباً بعد كل هذا أن يسمِّي الله سبحانه سورة من سور التنزيل الحكيم باسم النمل، لما جعل الله فيه من دلائل القدرة وباهر الحكمة وبديع الصنعة، مع العلم أنَّ الإنسان لا يزال في أول دروب العلم والمعرفة، وما يجهله أكثر بكثير مما يعلمه، وأن سورة النمل قد ختمها الله بقوله الكريم: ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[2].

ترىٰ هل رأىٰ الإنسان بعض آيات الله في هذه الحشرة الصغيرة التي سمىٰ الله سورة كاملة باسمها!!!.

موضوع سورة النمل

نزلت سورة النمل عندما كان رسول الله ﷺ في مكة قبل أن يهاجر إلىٰ المدينة المنورة، فموضوعها كسائر السور المكية يتناول العقيدة وما يتصل بها من موضوعات الإيمان بالله سبحانه ودلائل وجوده ووحدانيته، والإيمان باليوم الآخر وتقرير مسؤولية الإنسان المكلف عن أعماله، والرد علىٰ المشركين وبيان بطلان عقائدهم الفاسدة.

إلا أن السورة تركز على المعجزة الكبرىٰ التي أيَّد الله سبحانه بها

---

(١) انظر مجلة المعرفة المجلد التاسع ص ١٥٦.

(٢) الآية ٩٣ النمل.

النبي ﷺ، وهي القرآن الكريم وما فيه من إعجاز، ولهذا ابتدأ الله تعالىٰ آيات سورة النمل بقوله الكريم: ﴿ طس تلك آيات القرآن وكتاب كريم هدىً وبشرىٰ للمؤمنين ﴾ وأكدت بعد ذلك آيات السورة أن القرآن الكريم أنزل علىٰ الرسول ﷺ من الله سبحانه، وأنه عليه الصلاة والسلام يتلقاه من الله العليم الحكيم الذي قال في سورة النمل: ﴿ وإنك لَتُلَقَّىٰ القرآن مِنْ لَدُنْ حكيم عليم ﴾[1].

انسجام واتفاق

وبهذا جاءت فواتح سورة النمل منسجمة ومتسقة مع ما قرره الله تبارك وتعالىٰ في خواتيم السورة التي قبلها ﴿وإنَّه لتنزيل ربِّ العالمين. نزل به الروحُ الأمين. علىٰ قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين ﴾[2] كما جاءت فواتح سورة النمل منسجمة ومؤتلفة مع ما جاء في خواتيمها من قوله تعالىٰ: ﴿ إنما أُمرتُ أن أعبدَ ربَّ هذه البلدة الذي حَرَّمها وله كلُّ شيء، وأُمرتُ أن أكونَ من المسلمين. وأن أتلوَ القرآن، فمن اهتدىٰ فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلَّ فقُلْ: إنما أنا من المنذرين ﴾[3].

من معجزات الأنبياء

وذكرت السورة بعض المعجزات التي أيَّد الله سبحانه بها بعض الأنبياء والمرسلين علىٰ سبيل المقارنة بينها وبين المعجزة القرآنية الخالدة، فذكرت أنَّ الله سبحانه أيَّد موسىٰ عليه السلام بالعصىٰ التي تتحول بقدرة الله ومشيئته إلىٰ حيَّة، واليد التي تخرج من جَيْب موسى

---

(١) الآية ٦ النمل.

(٢) ١٩٢ ـ ١٩٥ الشعراء.

(٣) ٩١ ـ ٩٢ النمل.

بيضاء من غير سوء، كما أشارت إلىٰ بقية المعجزات التسع التي أعطاها الله سبحانه وتعالىٰ لنبيه موسىٰ عليه السلام، قال تعـالى: ﴿ وألْق عصاك، فلما رآها تهتز كأنها جانٌّ ولَّىٰ مُدْبراً ولم يعقِّبْ، يا موسىٰ لاَ تَخَفْ إني لا يخاف لديَّ المرسلون * إلا من ظلم ثم بدَّل حسناً بعد سوء فإني غفورٌ رحيمٌ * وأدخل يدك في جيبك تخرجْ بيضاءَ من غير سوء في تسع آيات إلىٰ فرعون وقومه، إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾[1].

كما ذكرت بعض ما أعطىٰ الله سبحانه نبيه سليمان من خوارق العادات: كتسخير الجن له، وتعليمه منطق الطير، وإسماعه حديث النمل، وغير ذلك مما سيأتي بيانه إن شاء الله سبحانه، ثم تحدثت السورة عن آثار هذه المعجزات في الناس الذين شاهدوها، فأكثرهم جحدوها وأنكروها، مع علمهم وتيقنهم بأنها من الله سبحانه، كما فعل فرعون وجنوده قال تعالىٰ: ﴿ فلما جاءتهم آياتُنا مبصرةً قالوا هذا سِحْرٌ مُبين * وجحدوا بها واستيقنتْها أنفسهم ظُلْماً وعُلُواً، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[2].

وبعض الناس انقاد للحق وأذعن له، فآمن وأسلم لله سبحانه لما رأىٰ المعجزة، رغم ما كان عليه من القوة والملك والعزة والغنىٰ، كملكة سبأ.

الإعجاز العلمي في سورة النمل

وقـد بـينتُ فيما سبق أن أوجه إعجاز القرآن الكريم كثيرة، ولا يزال العلماء والدارسون للقرآن الكريم يكتشفون كل يوم وجهاً جديداً من أوجه إعجاز القرآن الكريم، إلا أن سورة النمل ركَّزت فيما يبدو لي

(١) ١٠ ـ ١٢ النمل.

(٢) ١٣ ـ ١٤ النمل.

علىٰ الإعجاز العلمي، ولقد لاحظ سيد قطب رحمه الله هذا أيضاً، فقال عندما تحدث عن سورة النمل:

(والتركيز في هذه السورة علىٰ العلم، علم الله المطلق بالظاهر والباطن، وعلمه بالغيب خاصة، وآياته الكونية التي يكشفها للناس، والعلم الذي وهبه لداود وسليمان، وتعليم سليمان منطق الطير وتنويهه بهذا التعليم، ومن ثم يجيء في مقدمة السورة: ﴿ وإنك لَتُلَقَّىٰ القرآنَ من لدن حكيم عليم ﴾ ويجيء في التعقيب: ﴿ قُلْ لا يعلمُ مَنْ في السموات والأرض الغيبَ إلا الله، وما يشعرون أيّان يبعثون * بل ادَّراك علمهم في الآخرة ﴾ ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ﴾ ويجيء في الختام: ﴿ سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ ويجيء في قصة سليمان: ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً، وقالا الحمد لله الـذي فضَّلنا علىٰ كثيـر من عباده المؤمنين ﴾.

وفي قول سليمان: ﴿ يا أيها الناس عُلِّمنا منطق الطير ﴾ وفي قول الهدهد: ﴿ ألاَّ يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾.

وعندما يريد سليمان استحضار عرش الملكة لا يقدر علىٰ إحضاره في غمضة عين عفريت من الجن، إنما يقدر علىٰ هذه ﴿ الذي عنده علم من الكتاب ﴾)[1].

القرآن وتاريخ بني إسرائيل

وأضيف إلىٰ ما ذكره سيد رحمه الله ما في السورة من أخبار ماضية تتعلق بجزء هام من تاريخ بني إسرائيل، إذ يكشف القرآن الكريم عن كثير من الحقائق التاريخية التي يجهلها أو يتجاهلها كثير من علمائهم وأحبارهم، ولهذا جاء قوله سبحانه وتعالىٰ في سورة النمل: ﴿ إنَّ هذا

(١) انظر في ظلال القرآن الكريم.

القرآن يقصُّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾[1] فالقرآن الكريم يعدُّ بحق أوثق المصادر العلمية لتاريخ بني إسرائيل، وقد حاول بعض أعداء الإسلام أن يشكك في صحة أخبار سورة النمل عن بني إسرائيل، محتجين بأن هذه الأخبار لم تذكر في الأسفار التي يتداولها اليهود في العصر الحاضر.

إلَّا أنَّ اليهود الذين كانوا يعيشون في زمن نزول القرآن الكريم وفي أماكن نزوله لم يثبت عنهم لا في القرآن الكريم ولا في صحيح الأخبار أنهم أنكروا شيئاً مما جاء عنهم وعن أخبار أنبيائهم وأجدادهم في القرآن الكريم، وقد كانوا أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وللإسلام وللمسلمين، مكروا بالنبي عليه الصلاة والسلام عدة مرات ليقتلوه، ونقضوا عهودهم معه، وحاربوه وألَّبوا قبائل المشركين عليه، فلو وجدوا في القرآن الكريم شيئاً يستطيعون معارضته وردّه لفعلوا، لكن حقائق القرآن الكريم تحدَّتهم ودمغتهم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وجعلتهم بعض الآيات الكريمة شهوداً على صحة ما في القرآن الكريم، وطالبتهم بأداء شهاداتهم لأنهم أعرف الناس بصدق النبي ﷺ وصحة ما أنزل الله عليه في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿يا أهلَ الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تَلْبِسُون الحقَّ بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾[2] وقال أيضاً: ﴿قل يا أهل الكتاب لِمَ تصدُّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عِوجاً وأنتم شهداء، وما الله بغافل عما تعملون﴾[3].

أخبار سليمان في الأسفار

وقد جاء في بعض الأسفار المتداولة بين اليهود في العصر الحاضر

---

(١) الآية ٧٦ النمل.

(٢) ٧٠ ـ ٧١ آل عمران.

(٣) ٩٩ آل عمران.

ما يفيد أن كثيراً من أخبار سليمان عليه السلام كانت موجودة ومكتوبة في الأسفار القديمة، قال الأستاذ محمد عِزت دَرْوَزة في كتابه التفسير الحديث: لقد ورد في الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأول خبر زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام وتنويهها بما أوتي من حكمة وتقديمها هدايا عظيمة إليه، أما ما عدا ذلك فلم يرد في أسفار العهد القديم المتداولة، وقد وجد المغرضون في ذلك فرصة للقول باختراع ما جاء في الآيات من سور عليها طابع الإعجاز وخرق العادة والنواميس، وبقطع النظر عن كون هذا داخلاً في نطاق قدرة الله تعالىٰ، فإننا نقول من قبيل المساجلة: إنه ليس هناك ضرورة فنية للاختراع، وإن السياق القرآني يبقىٰ مستقيماً بدون الزوائد لو لم تكن مستندة إلىٰ أصل، ونحن نعتقد أنها كانت واردة في أسفار وقراطيس متداولة بأيدي اليهود في زمن النبي ﷺ ثم ضاعت، ولقد جاء في الإصحاح التاسع من سفر أخبار الأيام الثاني المتداول اليوم هذه الجملة: (وبقية أخبار سليمان الأولىٰ والأخيرة مكتوبة في أخبار ناثان النبي ونبوة أحيا الشيلوني وعَدْوَ الرائي) وهذه الأسفار ليست من الأسفار المتداولة اليوم[1].

تلك هي أهم الأفكار والموضوعات التي ذكرت في سورة النمل، ولا يخفىٰ علىٰ المتأمل فيها أنها جميعاً تدور في فلك موضوع أساسي واحد، هو موضوع المعجزات وبيان موقف الناس منها، وأن القرآن الكريم بما فيه من إعجاز أكبر هذه المعجزات وأعظمها.

الحروف المقطعة وإعجاز القرآن

افتتح الله سورة النمل بقوله الكريم: ﴿ طسٓ تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾. وأشبهت افتتاحية سورة النمل افتتاحية سورة الشعراء التي قبلها، وافتتاحية سورة القصص التي بعدها، فكلا السورتين

(١) انظر التفسير الحديث ص ١٦١ ط. البابي الحلبي.

ـ الشعراء والقصص ـ افتتحهما الله بقوله الكريم: ﴿ طسم. تلك آيات الكتاب المبين ﴾.

ولعلماء التفسير أقوال كثيرة في معاني الحروف المقطَّعة، وكثرة هذه الأقوال تدل علىٰ حقيقة هامة، هي أن الإنسان مهما تدبر كلمات الله في القرآن فلن يقف علىٰ كل أسرارها، ولن يحيط بمعانيها، ولهذا ذهب كثير من علماء التفسير إلىٰ القول بأن معاني هذه الحروف مما استأثر الله سبحانه بها، فردوا علمها إلىٰ الله ولم يفسروها.

وأما الذين فسروها فأكثرهم رأىٰ أنها ذكرت بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أن القرآن مركبٌ من هذه الحروف التي يتخاطبون بها.

ولقد انتصر لهذا الرأي ابن كثير في تفسيره، فبعد أن ذكره وذكر العلماء الذين ذهبوا إليه، قال رحمه الله: (ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة مثل ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾... وغير ذلك من الآيات الدالة علىٰ صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر).

ولو أمعنا النظر كما قال ابن كثير في فواتح الشعـراء والنمل والقصص، لانتصرنا أيضـاً لهذا القول، وتأكدنا من قوته ووجاهته، وأن هذه الحروف جاءت بياناً لإعجاز القرآن الكريم، وكررت في أوائل تسع وعشرين سورة ليكون أبلغ في التحدي كما كررت قصص كثيرة، وكما كرر التحدي الصريح في عدة آيات، والله سبحانه أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وقد اعترض بعضهم علىٰ استقراء ابن كثير بأن هناك ثلاث سور افتتحت بالحروف المقطعة ولم يذكر فيها الانتصار للقرآن وهي، سورة

مريم، وسورة العنكبوت، وسورة القلم، إلا أن هذا الاعتراض يسقط إذا تأملنا كل آيات هذه السور، ففي بعض آيات هذه السور ذكر للقرآن الكريم وتأكيد على كونه كلام الله كقوله في سورة مريم: ﴿ فإنما يسّرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُدّاً ﴾ وفي العنكبوت: ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ وفي القلم: ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾.

المعجزات التسع

أيَّد الله سبحانه موسىٰ عليه السلام بتسع معجزات تدل علىٰ صدق رسالته وصحة نبوته، وهي: اليد، والعصا، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع والدم.

وقد ذكر الله سبحانه منها في سورة النمل معجزة اليد، ومعجزة العصا، وأشار إلي بقيتها في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وألقِ عصاك، فلما رآها تهتز كأنها جانٌّ ولّىٰ مُدْبراً ولم يُعقِّبْ، يا موسى لا تخفْ إني لا يخاف لديَّ المرسلون * إلا من ظلم ثم بدَّل حسناً بعد سوء فإنِّي غفور رحيم * وأدخل يدك في جَيْبك تخرجْ بيضاءَ من غير سُوء في تسع آيات إلىٰ فرعون وقومه، إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾[1]. وأشار إليها سبحانه أيضاً في سورة الإسراء في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ولقد آتينا موسىٰ تسع آيات بينات، فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم، فقال له فرعون: إني لأظنك يا موسىٰ مسحوراً ﴾[2].

وذكرها سبحانه مفصَّلة في سورة الأعراف فقال تعالىٰ: ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقصٍ من الثمراتِ لعلهمْ يذَّكرون * فإذا

(١) ١٠ ـ ١٢ النمل.

(٢) ١٠١ الإسراء.

جاءتهْمْ الحسنةُ قالوا لنا هذه، وإن تصبهمْ سيئةٌ يطَّيروا بموسىٰ ومن معه، ألا إنَّما طائرُهمْ عندَ اللَّهِ ولكنَ أكثرهمْ لا يعلمون * وقالوا مهما تأتِنا به من آيةٍ لتسحرَنا بها فما نحنُ لك بمؤمنينْ * فأرسلنا عليهمُ الطوفانَ والجرادَ والقُمّلَ والضفادعَ والدمَ آياتٍ مفصَّلاتٍ فـاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾[1].

وموقف فرعون وقومه واضح من خلال هذه الآيات الكريمات فقد كانوا معاندين للحق ومصرين علىٰ الباطل، مع أنهم في قرارة قلوبهم يعلمون علماً يقينياً صدق موسىٰ عليه السلام، لأن هذه المعجزات التي أيَّده الله بها لا يقدر عليها أحد غير الله سبحانه، وقد وصف الله سبحانه وتعالىٰ موقف العناد والمكابرة هذا في آيتين من آيات سورة النمل، وبيَّن في هاتين الآيتين أيضاً قوة هذه المعجزات ووضوحها، والأسباب التي جعلتهم يجحدونها مع تيقنهم أنَّها من الله سبحانه، كما بين النتائج الوخيمة التي أعقبت موقف الجحود والمكابرة لتلك المعجزات، جاء كل ذلك بأسلوب قرآني معجز في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فلما جاءتهم آياتُنا مُبْصرةً قالوا هذا سحر مبين * وجَحَدوا بها واستيقنتْها أنفسُهم ظلماً وعُلُواً، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[2].

تأمل قوله تعالىٰ في وصف هذه المعجزات: ﴿ مبصرة ﴾ أي بيِّنة واضحة، فهي اسم فاعل جاء في صيغة المفعول إشعاراً بقوة وضـوح المعجزات، فهي لشدة وضوحها وظهورها تكاد تبصر نفسها[3]، ولهذا استيقنتها أنفسهم وعرفت أنها حق لا شبهة فيها، فالحق واضح بيِّن في كل زمان ومكان، ولا يجحده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه، بل إنهم يعرفونه ويستيقنونه في قرارة نفوسهم، ولا يحملهم علىٰ جحوده إلا

---

(١) ١٣٠ ـ ١٣٣ الأعراف.

(٢) ١٣ ـ ١٤ النمل.

(٣) انظر تفسير البيضاوي.

شعورهم وإحساسهم أنه خطر علىٰ مصالحهم وأطماعهم ومغانمهم، فألسنتهم التي قالت: ﴿ هـذا سحر مبين ﴾ تخالف ما استقر في نفوسهم.

وكذلك كان موقف كبار المشركين من قريش عندما يسمعون آيات التنزيل الحكيم من فم النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، كانوا يستيقنون أنه الحق، وأنه كلام الله الذي يعلو ولا يعلىٰ عليه، ولكنهم يجحدونه إبقاءً علىٰ عقائدهم الفاسدة لما فيها من أوضاع تسندهم ومغانم تتوافد عليهم ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ وفي ختام الآية انظر وتأمل روعة الإعجاز والبيان في الالتفات إلىٰ خطاب النبي ﷺ، وعاقبة فرعون وقومه معروفة كشف عنها القرآن الكريم في مواضع أخرىٰ، وجاءت الإشارة إليها هنا بأسلوب الالتفات إلىٰ النبي ﷺ تهديداً ووعيداً للجاحدين والمكابرين من قومه قبل أن ينزل بهم من العذاب والهلاك مثلما نزل بفرعون وقومه، وتسليةً وتثبيتاً للنبي ﷺ، وهو يواجه عَنَت الجاحدين والمكابرين.

النبوة والعلم

النبوة نوع من أنواع العلم، إلا أنَّ النبوة علم غير مُكْتَسب، إنها علم لَدُني ـ من لدن الله ـ يتفضل الله سبحانه به علىٰ من يشاء من عباده المصطَفين لمقام النبوة الرفيع، ولا يقتصر علم النبوة علىٰ شؤون الدين من عقيدة وعبادة وتشريع وأخلاق، بل يتعدَّاها إلىٰ علوم أخرىٰ تتصل بكثير من حقائق الكون وأسرار الحياة، يكشفها الله سبحانه لأنبيائه دون اكتساب منهم ومعاناة لأسباب تحصيلها، فتكون هذه العلوم معجزة لهم وأدلة من دلائل صدقهم، لأن مثل هذه العلوم والمعارف لم تكن موجودة في زمن النبي الذي علَّمه الله سبحانه إياها، وقد تكون علوماً عزيزة المنال حتىٰ لمن يطلبها ويبذل جهده من أجل اكتسابها وتحصيلها،

فمعرفة النبي بها لا بد أن تكون من أدلة صدقه ومؤيدات نبوته.

لقد أعطىٰ الله سبحانه داود وسليمان عليهما السلام كثيراً من العلوم إلىٰ جانب علوم الدين، وهما نبيان كريمان أكرمهما الله بهذه العلوم إظهاراً لفضلهما وتأييداً لنبوتهما، قال تعالىٰ في سورة النمل: ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً، وقالا الحمدُ لله الذي فضّلنا علىٰ كثير من عباده المؤمنين ﴾[1] ولم تبين الآية الكريمة ماهية هذا العلم ونوعه، فقوله سبحانه: ﴿ علماً ﴾ بالتنوين إما أن يدل علىٰ النوع، أي نوعاً من أنواع العلم، أو يدل علىٰ التعظيم لهذا العلم، أي علماً عظيماً، وتصدير الآية بقوله تعالىٰ: ﴿ لقد آتينا ﴾ باللام الموطئة للقسم، ونون التعظيم في ﴿ آتينا ﴾ للدلالة علىٰ عظمة المعطي المتفضل سبحانه وتعالىٰ، وهذا يدل علىٰ أن الله سبحانه أعطىٰ داود وسليمان علماً عظيماً وكبيراً، استقبلاه بحمد الله سبحانه وشكره علىٰ ما أعطاهما ﴿ وقالا الحمد لله ﴾ عطفه بالواو، إشعاراً بأن ما قالاه بعض ما أتيا به في مقابلة نعمة العلم، فالواو تدل علىٰ فعل محذوف مقدر، كأنه قال: ففعلا شكراً له ما فعلا وقالا الحمد لله، فتأمل الإعجاز البياني الباهر في حرف واحد من حروف الآية الكريمة وما يحمل هذا الحرف من معانٍ كبيرة وعظيمة.

وفي الآية دليل علىٰ فضل العلم وشرف أهله حيث شكر داود وسليمان الله سبحانه علىٰ العلم، وجعلاه أساس الفضل، فعلىٰ العِالم أن يحمدَ الله سبحانه علىٰ ما آتاه من فضله، وأن يتواضعَ بأن يعتقد أنه وإن فُضِّل علىٰ كثير من العباد، فقد فضَّل الله سبحانه عليه كثيراً، ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾.

---

(١) الآية ١٥ النمل.

ولهذا أمر الله نبينا ﷺ أن يسألَ ربه الزيادة في العلم بقوله الكريم: ﴿ وقل ربِّ زِدْني علماً ﴾[1].

علوم داود عليه السلام

جمع الله سبحانه لداود عليه السلام النبوة والملك، فقد كان ملكاً نبياً، كما تفضَّل الله سبحانه عليه بما شاء من العلم الذي خصَّه به، قال تعالىٰ: ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ربَّنا أفرِغْ علينا صَبْراً وثبِّتْ أقدامَنا وانصرْنا علىٰ القوم الكافرين * فهزموهم بإذن الله، وقتل داودُ جالوتَ وآتاه الله الملكَ والحكمة وعلَّمه ممَّا يشاء، ولولا دَفْعُ الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدتِ الأرض، ولكنَّ الله ذو فضل علىٰ العالمين ﴾[2].

كما أن الله سبحانه أنزل علىٰ نبيه داود الزبور وهو من الكتب السماوية التي أنزلها الله سبحانه علىٰ بعض رسله، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾[3].

ومن العلوم التي تفضَّل الله سبحانه بها علىٰ داود عليه السلام تسبيحُ الجبال والطير معه، فكان عليه السلام إذا سبَّح الله سبحانه ردَّدت الجبال والطير تسبيحه، قال تعالىٰ: ﴿ وسخَّرنا مع داود الجبال يُسَبِّحنَ والطير، وكُنَّا فاعلين ﴾[4]

وقال سبحانه أيضاً: ﴿ اصبرْ علىٰ ما يقولون واذكر عبدَنا داودَ ذا الأَيْدِ إنَّه أوَّاب * إنَّا سَخَّرْنا الجِبال معه يُسَبِّحْنَ بالعشي والإشراق *

---

(١) ١١٤ طه.

(٢) ٢٥٠ - ٢٥١ البقرة.

(٣) ١٦٣ النساء.

(٤) ٧٩ الأنبياء.

والطيرَ محشورةً كلٌّ له أوَّاب * وشَدَدْنا مُلْكَه وآتيناه الحكمةَ وفصلَ الخطاب ﴾[1].

وقال عزَّ وجلَّ أيضاً: ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً، يا جبال أوِّبي معه والطيرَ، وألَنَّا له الحديدَ ﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿ يا جبال أوِّبي ﴾ أي رجِّعي وكرِّري، لأن الأوب الرجوع[3].

وتأمل فخامة النَّظْم القرآني وجماله، كان الأصل أن يقول: ولقد آتينا داود منا فضلاً تأويب الجبال والطير، إلَّا أنَّ سِياق الآيات التفت إلىٰ خطاب الجبال والطير فأنزلها منـزلة العقلاء المخاطبين المكلَّفين، ليستشعر القارىء عظمة الله سبحانه وتمام مشيئته وإرادته النافذة في جميع المخلوقات، فالجبال والطير منقادة لمشيئته سبحانه، نافذ فيها أمرُه وسلطانه، جلَّ جلاله.

الحديد الليِّن

ومن العلوم التي تفضَّل الله سبحانه بها على نبيه داود عليه السلام علم صناعة الدروع، التي يلبسها المتحاربون لحماية أجسامهم من ضربات وطعنات أعدائهم أثناء الحرب والقتال، قال تعالىٰ: ﴿ وعلَّمناه صَنْعَةَ لَبوسٍ لكم لتُحصِنَكم من بأسكم، فهل أنتم شاكرون ﴾[4].

ومن المعلوم أن الاستفادة من العلم لا يستطيع الإنسان تحصيلها إلا إذا تمكن من استثمار العلم وملك القدرة علىٰ ذلك، فعلم صناعة

(١) ١٧ ـ ٢٠ سورة ص.

(٢) ١٠ سبأ.

(٣) انظر حاشية الشهاب علىٰ البيضاوي.

(٤) ٨٠ الأنبياء.

الدروع لا يفيد شيئاً بدون قوة وقدرة تمكن صاحب هذا العلم من استثماره والاستفادة منه، ولهذا أعطىٰ الله سبحانه وتعالىٰ داود عليه السلام قوة عضلية كبيرة، تمكن بواسطتها من الاستفادة من تعليم الله له صنعة الدروع، وبهذه القوة العضلية أصبح الحديد ليِّناً لداود عليه السلام، كما قال تعالىٰ: ﴿ وألَنَّا له الحديد * أن اعملْ سابغاتٍ وقَدِّرْ في السَّردِ ﴾[1]، فالحديد في يده عليه السلام كالشمع يصنعه كيف يشاء من غير نار ولا طَـرْق، وهذا يدل علىٰ قوته العضلية الكبيرة التي أنعم الله عليه بها، فقد وصفه الله سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿ واذكر عبدَنا داود ذا الأيْدِ إنَّه أوَّاب ﴾[2].

وقوله: ﴿ ذا الأيد ﴾ أي ذا القوة، فالأيْد القوة، والأيدي القوىٰ، وهي محتملة لأن تكون قوة في الجسم أو قوة في الدين، ويرجع بعض المفسرين أن المراد قوة الدين، واحتجوا بقوله تعالىٰ في آخر الآية: ﴿ إنَّه أوَّاب ﴾ أي رجَّاع إلىٰ مرضاة الله تعالىٰ، وقد عرف عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وهذا الصيام أشق أنواع الصيام علىٰ النفس، كما عرف عنه أنه كان ينام نصف الليل ثم يقوم ثلثه، ثم ينام سدسه الأخير، وفي هذا القيام ما فيه من شدة ومشقة، قال ﷺ: «أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله تعالىٰ صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً»[3].

ولا مانع من حمل الآية علىٰ الإطلاق وأنه سبحانه أكرم داود بقوة الدين وقوة البدن، قال ابن كثير: «الأيد» القوة في العلم والعمل.

وكان عليه السلام يستعمل قوته البدنية في جهاد أعداء الله، وقد

---

(١) ١٠ ـ ١١ سبأ.

(٢) ١٧ ص.

(٣) متفق عليه.

تمكن أثناء الجهاد من قتل الطاغية المتكبر جالوت الذي اشتهر بقوة جسده وشدة بأسه، وكان ذلك سبب وصول داود للملك، كما مر معنا في قوله تعالىٰ: ﴿ وقتل داود جالوت، وآتاه الله الملك والحكمة وعلَّمه ممَّا يشاء ﴾.

وكان داود عليه السلام يصنع الدروع من الحديد ويبيعها وينفق على نفسه وعياله من عمل يده، فما كان عليه السلام يمد يده إلى مال الأمة، مع أنه كان من أغنى الملوك وأقواهم، قال عليه الصلاة والسلام: «ما أكل أحد طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[1].

فعل ذلك عليه السلام تواضعاً لله وشكراً له على ما أعطاه وأولاه من نعمة العلم في الدين والدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿ اعملوا آلَ داود شُكْراً، وقليلٌ من عبادي الشكور ﴾[2].

بين صورتين

لقد كان داود عليه السلام مثلاً طيباً للحاكم الصالح في عدله وحكمته، وجهاده وشجاعته، وعلمه وعمله، وتواضعه وعبادته، تلك هي الصورة الكريمة الوضيئة التي رسمتها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لنبي الله داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

أما صورته عند بني إسرائيل فصورة قاتمة مظلمةٌ، فهو في نظرهم رجل قاسٍ غليظ القلب، يحب الشهوات ويتطلع إلى حرمات الناس، فإذا ما رأى امرأة أعجبه حسنها أمر جنده بإرسالها إلى فراشه، وبعد أن يقضي وطره منها وتحمل المرأة منه يعمل على قتل زوجها ليضمها إلى

---

(١) أخرجه البخاري وأحمد.

(٢) ١٣ سبأ.

نسائه وزوجاته، وزعموا أن نبي الله سليمان وُلد من هذه المرأة[١].

إن حديث التوراة التي يتداولها اليهود في العصر الحاضر عن داود عليه السلام فيه تناقض واضح، مما يدل دلالة قاطعة على تبديل وتغيير في نصوص التوراة، فهو فيها حامل سلاح ملك اليهود شاؤول، الذي ذكر في القرآن الكريم باسم طالوت، وهو حارسه وقاتل عدو اليهود الأكبر جالوت الجبار.

كما أنه يعمل في بلاط شاؤول مغنياً لأنه كان يجيد الضرب على القيثار، ويغني أغانيه العجيبة بصوته الرخيم، وهو أيضاً زوج ابنة شاؤول وصديق وحبيب ابنه يوناثان، وتصوره نصوص التوراة في الوقت نفسه أنه أكبر أعداء شاؤول، حتى أنه ينضم إلى الفلسطينيين أعداء بني إسرائيل ويقاتل معهم قومه من اليهود وملكهم شاؤول، كما أنه في التوراة رجل غليظ القلب يقتل الأسرى جملة، ويأمر بحرق المغلوبين من أعدائه وسلخ جلودهم ونشرهم بالمنشار، ولكنه في نفس الوقت كان يعفو عن أعدائه[٢]. وحين يطلب منه شاؤول مائة غلفةٍ[٣] من الفلسطينيين مهراً لابنته ميكال، يقتل داود مائتي رجل من الفلسطينيين ويقدم غلفهم مهراً لابنة شاؤول هذه[٤].

تلك هي صورة داود عليه السلام عند بني إسرائيل، فأين هذه الصورة المظلمة من الصورة الوضيئة الكريمة التي رسمتها نصوص القرآن والسنة، والتي تليق بنبي كريم اصطفاه الله واجتباه، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يصطفي لها إلا أكرم الناس خلقاً وأطهرهم نفساً.

---

(١) انظر كتاب دراسات تاريخية من القرآن الكريم، وكتاب قصص الأنبياء.

(٢) انظر دراسات تاريخية عن صموئيل ثاني.

(٣) الغلفة: قطعة الجلد فوق الذكر والتي تزال عند الختان.

(٤) المرجع نفسه.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان من دعاء داود عليه السلام: اللهم إني أسألك حبّك، وحبَّ من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك. اللهم اجعل حبك أحب إليّ من نفسي، وأهلي، ومالي، ومن الماء البارد» وكان النبي ﷺ إذا ذكر داود تحدَّث عنه بقوله: «كان أعبد البشر»[1].

سليمان عليه السلام

انتقل الملك بعد موت داود عليه السلام إلى ولده سليمان عليه السلام، وأكرمه الله سبحانه بالنبوة كما أكرم والده من قبل فكان عليه السلام نبياً مَلِكاً، قال سبحانه وتعالى في سورة النمل: ﴿وورث سليمان داود﴾. أي أكرمه الله سبحانه بالنبوة والملك كما أكرم والده من قبل، وهذا معني وراثة سليمان داود، فالأنبياء عليهم السلام لا يُورثون، قال ﷺ: «لا نُورث ما تركناه صدقة»[2] وليس من الضروري أن يكون أولاد الأنبياء مثل آبائهم، فالنبوة لا تنال بالوراثة لكن هي محض فضلٍ من الله سبحانه.

وقد أعطى الله سبحانه سليمان عليه السلام كثيراً من المعجزات العلمية، فخصه بكثير من العلوم اللدنية التي لا يمكن تحصيلها بمعاناة الأسباب، وسخَّر له سبحانه من القوى والطاقات الكبيرة ما لا يمكن لأحد من البشر أن يصل إليها، وأصبح ملك سليمان ملكاً عظيماً في الأرض بسبب ما وهب الله له من العلوم وما أعطاه وسخر له من القوى والطاقات، فلم يصل إلى مثل ملكه أحد قبله ولا بعده استجابةً لدعوته عليه السلام عندما سأل الله سبحانه قائلاً: ﴿قال ربِّ اغفرْ لي، وهَبْ لي

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) متفق عليه.

مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي، إنك أنت الوهاب ﴾[1].

ولم يسأل سليمان عليه السلام هذا الملك للتفاخر به والتباهي، فهو من بيت نبوة وملك، وهو يعلم أن الدنيا فانية وزائلة، ولهذا سأل الله سبحانه أولاً المغفرة، ثم أتبعها بسؤال الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ليكون معجزة له يستعين به في أمر الدعوة لله سبحانه، وفي قصته عليه السلام مع ملكة سبأ التي قصَّها الله علينا في سورة النمل ما يؤكد هذه الحقيقة.

وقد استجاب الله سبحانه لدعوة نبيه سليمان فأعطاه ملكاً ما أعطى مثله أحداً بعده، قال عزّ وجلّ: ﴿ فسَّخرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب. والشياطينَ كلَّ بنَّاءٍ وغوَّاص. وآخرينَ مُقَرَّنين في الأصفاد. هذا عطاؤنا فامْنُن أو أمْسِك بغير حساب ﴾[2].

لقد سخر الله سبحانه لسليمان الريح العاصفة تأتمر بأمره ويوجهها بمشيئته رخيةً لينةً حيث يريد، وأخضع له مَرَدَة الجن والشياطين يأتمرون بأمره ويعملون له ما يشاء من الأعمال الكبيرة والمنشآت الضخمة الهائلة، وهذا يدل على أن الله سبحانه مكن سليمان عليه السلام من طاقات كبيرة هائلة، وسلَّطه على قوىً خفية جبارة لم يسلط عليها أحداً غيره، معجزةً له عليه السلام وبرهاناً على صحة نبوته وصدقه. كما قال تعالى: ﴿ ولسليمان الريحَ غُدوُّها شهر ورواحُها شهر، وأسَلْنا له عين القِطْر، ومن الجنِّ من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يَزِغْ منهم عن أمرنا نُذِقْه من عذاب السعير. يعْملون له ما يشاء: من محاريب، وتماثيلَ، وجفانٍ كالجواب، وقُدورٍ راسيات، اعملوا آلَ داودَ شكراً، وقليلٌ من عبادي الشكور ﴾[3].

(1) ٣٥ ص.
(2) ٣٦ - ٣٩ ص.
(3) ١٢ - ١٣ سبأ.

الإنسان والشكر

لقد عمل نبي الله سليمان كما أمره الله سبحانه، فكان كل عمله شكراً لربه، وتمكيناً لدينه في الأرض، ونشراً لعبادته بين الناس، فلم يُسخِّر هذه القدرات والقوى الهائلة التي أقدره الله عليها للاستبداد والظلم والمفاخرة والمباهاة، كما هو شأن أكثر الناس عندما يغنيهم الله من فضله، ويعطيهم من كنوز جوده وكرمه. وما تفعله المجتمعات الغربية المعاصرة اليوم من ظلم وبغي وطغيان واستبداد وترف وسرف، وتسلط على الشعوب الضعيفة وإذلالها وتسخيرها لمآرب المجتمعات الغربية ومصالحها. خير شاهد واقعي لصدق قوله تعالى: ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾.

هل شكر الإنسان المعاصر الله سبحانه على ما أعطاه وأولاه عندما هداه إلى بعض أسباب القوة ووضع يده على بعض مفاتيح كنوز الخير والجود التي خلقها الله في هذه الأرض؟!. هل استعمل نعمة الله سبحانه في شكره وعبادته فساعد الضعفاء من عباده، أم استعملها في التسلط والظلم والبغي ووجهها إلى الحرب والقتل والتدمير، حتى أصبح أكثر الناس في ظل حضارة المتسلطين والباغين غير آمنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وأصبحت رؤوس وقلوب أكثر الناس مخازن للخوف والقلق والاضطراب.

إن عدم شعور الإنسان المعاصر بالأمن والطمأنينة في العصر الحاضر أكبر المشكلات التي تواجه الإنسان، فهو دائماً في خوف وقلق واضطراب، وما أكثر الضاربين في جنبات الأرض بحثاً عن هذين المطلبين الهامين في حياة الإنسان. الأمن والطعام!!!.

وبينما ينفقون على السلاح ووسائل التدمير والتخريب خمس مائة ألف مليار دولار سنوياً يموت ثلاثون ألف طفل كل يوم بسبب

الجوع[1]، في ظل حضارة الإنسان المعاصر التي بنيت على العلم المجرد عن الإيمان، فقد كان هذا العلم في أغلب حالاته بعيداً عن الله سبحانه.

لقد كان سليمان عليه السلام نبياً ملكاً متواضعاً لله سبحانه شاكراً له على نعمه وفضله، يتحدث دائماً عن فضل الله عليه، ويقول كما ذكر الله في سورة النمل: ﴿ يا أيها الناس عُلِّمنا منطق الطير وأُوتينا من كل شيء، إنّ هذا لَهُوَ الفضلُ المبين ﴾[2] ﴿ وقال ربِّ أوزعني أن أشكرَ نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ، وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾[3].

منطق الطير

ومن العلوم المعجزة التي منّ الله سبحانه بها على نبيه سليمان عليه السلام علم منطق الطير، فكان عليه السلام يحاور الطيور وتحاوره، ويكلمها وتكلمه، وهو لا شك أمر خارق للعادة. وللمعجزة فيه وجهان: تكليمه عليه السلام للطير وفهم الطير لكلامه، وتكليم الطير له وفهمه لمنطق الطير وكلامه.

ومنطق الطير كلامه، وفيه دليل على أن للطيور لغة تخاطب خاصة بها، علّم الله هذه اللغة سليمان عليه السلام، وأظهرها سليمان للناس تحدثاً بنعمة الله سبحانه عليه وإظهاراً للمعجزة التي خصّه الله سبحانه بها، ولهذا قدَّمها في الذكر عندما قال: ﴿ يا أيها الناس عُلِّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ أي أعطاه الله سبحانه كل شيء تدعو إليه الحاجة كالنبوة والعلم والحكمة والمال وتسخير الجن والطير والريح،

(١) من منشورات الصحف بمناسبة يوم الجوع العالمي لعام ١٩٨٤ م.
(٢) الآية ١٦ النمل.
(٣) الآية ١٩ النمل.

وجاء سليمان بنون العظمة التي أراد بها نفسه لأنه كان مطاعاً مسموع الكلمة، فلم يأت بها تكبراً ولا تجبراً وتعظيماً لنفسه، ولهذا ختم كلامه بما يدل على تواضعه لله سبحانه وبيان فضله عليه فقال: ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾.

ويهتم كثير من الباحثين اليوم في لغات الحيوانات والطيور والحشرات كالنمل والنحل، وقد لاحظ الدارسون من العلماء لأحوال الطيور والحيوانات أنَّ أصواتها تتكيف بكيفيات مختلفة باختلاف حاجاتها ومطالبها، فمواء الهرة المحبوسة مثلاً يختلف عن موائها عندما تطلب الطعام والماء، فلكل صوت كيفيات ونبرات ليست في الصوت الآخر، وقد كشف عالم ألماني منذ حوالي خمسين عاماً بعد ملاحظات دقيقة وصبر طويل أنَّ الطيور لا تصدح وتغني فقط، ولكنها تتكلم ولها مثل البشر لهجات خاصة، مثال ذلك أنَّ الشحرور النمساوي لا يفهم لهجة الشحرور البافاريّ، والشحرور الفرنساوي لا يفهم لهجة الشحرور الإنكليزي(١).

والعجيب أن بعض الناس يقلدون لغة الطيور ويجعلونها لغة التفاهم في ما بينهم أحياناً، ففي منطقة جزر الكناري الجبلية يتحدث الناس فيما بينهم بلغة تشبه لغة الطيور ويتفاهمون عبر مسافات طويلة تفصل بينهم بالصفير الذي يشبه صفير الطيور لبعضها، وبعض الصيادين في موريتانيا يعتمدون في صيدهم على الدلفين، فيضربون الماء ضربات خاصة بأصوات خاصة يستجلبون بها الدلفين ليسوق إلى شباكهم سمك التيمالوس(٢).

---

(١) نُشر هذا الخبر في جريدة الأهرام في عدد يوم الأحد الموافق ٤ شباط سنة ١٩١٧ م كما في قصص الأنبياء للنجار.
(٢) نشر هذا في برنامج علمي يدعى أسرار البحار (عرضه رائي المملكة السعودية).

لقد جعل الله سبحانه لكل أمة من الأمم لغة تفاهم بين أفرادها. وكان اختلاف اللغات واللهجات تابعاً لاختلاف وتنوع الأمم والشعوب والأجناس، وهذا الاختلاف والتنوع في الأمم والشعوب والأجناس واللغات واللهجات مظهراً من مظاهر قدرة الخالق العظيم سبحانه وتعالى، ومن أدلة وجوده سبحانه، قال عزّ وجلّ: ﴿ ومن آياته خَلْقُ السموات والأرض واختلافُ ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾[1].

وجعل الله سبحانه وتعالى الطيور والحيوانات والحشرات أمماً، ولكل أمةٍ خصائصها التي تتميز بها عن غيرها من الأمم، قال تعالى: ﴿ وما من دابةٍ في الأرض ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيه إلا أممٌ أمثالُكم، ما فرَّطنا في الكتاب من شيء، ثم إلى ربِّهم يُحشرون ﴾[2].

فلا بد أن تكون لكل أمة من هذه الأمم روابط معينةٌ تحيا بها ووسائل تفاهم فيما بينها، وهو أمر مشاهد في حياة كثير من الحيوانات والطيور والحشرات، ويجتهد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها والكشف عن وسائل التفاهم فيما بينها عن طريق البحث والمراقبة والمقارنة، ويجب التنبيه إلى أنَّ ما يتوصل إليه بعض العلماء في هذا المجال يختلف اختلافاً كبيراً عن علم منطق الطير الذي علمه الله سبحانه سليمان، فعلم العلماء يبقى حبيس الظن والحدس معتمداً على المراقبة والمقارنة، ولا يرقى إلى العلم اللدني القطعي الخارق لمألوف البشر الذي تفضل به العليم الخبير على عبده ونبيه سليمان عليه السلام.

وقد أحسن سيد قطب ـ رحمهُ الله ـ في ظلال القرآن عندما قال:

---

(١) ٢٢ الروم.

(٢) ٣٨ الأنعام.

(أحب أن يتأكد هذا المعنى ويتضح، لأن بعض المفسرين المحدثين ممن تبهرهم انتصارات العلم الحديث يحاولون تفسير ما قصه القرآن عن سليمان عليه السلام في هذا الشأن بأنه نوع من إدراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة، وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشري القليل. وإنه لأيْسَرُ وأهون شيء على الله أن يعلِّم عبداً من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات هبةً لدنية منه بلا محاولة ولا اجتهاد، وإن هي إلا إزاحة لحواجز النوع التي أقامها الله بين الأنواع وهو خالق هذه الأنواع)[1].

ومن قبل سليمان علّم الله سبحانه آدم عليه السلام كل الأسماء لكل الأشياء في كل اللغات، إظهاراً لعظيم قدرته سبحانه وفضله: ﴿ وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علمَ لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليمُ الحكيمُ. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم: إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون ﴾[2].

وإن في محاولات العلماء اليوم لمعرفة لغات الحيوانات والطير والحشرات واجتهادهم في الكشف عن وسائل التفاهم فيما بينها، تصديقاً لما قرره الله سبحانه في كتابه الكريم، وإظهاراً لوجه من وجوه إعجازه العلمي، يزيد المؤمنين إيماناً بصدق كلامِ الله تعالى وصحة رسالة النبي ﷺ، فيحمدون الله سبحانه على ما تفضل به عليهم وعلى الناس جميعاً بحفظ القرآن الكريم، وإبقاء آياته في الأرض أعلاماً للإسلام، وشواهد حقٍّ تبقى على الدوام، فله سبحانه الحمد أولاً

(١) انظر في ظلال القرآن ١٩/ ١٣٨.

(٢) ٣١ ـ ٣٣ البقرة.

وآخراً، كما أخبر في آخر سورة النمل: ﴿ وقُلِ الحمدُ لله سيُريكم آياتِه فتعرفونها، وما ربُّك بغافلٍ عما تعملون ﴾.

جنود سليمان

وفي جنود سليمان معجزات كبيرة خارقة للعـادة، أخضع الله سبحانه له الجن ليكونوا من جنوده، وسخَّر له الطير ليكونوا في عداد جيشه كما قال تعالى: ﴿ وحُشر لسليمان جنودُه من الجن والإنس والطير فهم يُوزَعون ﴾[1]. وإن كلمة ﴿ حُشر ﴾ لتدل على كثرة جنوده وقوتهم وكثرة عددهم، ومع هذا فالذي يبدو لنا أنَّ الله سبحانه سخر لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير كما سخّر له طائفة من الإنس، لأن ملك سليمان كما يذكر المؤرخون لم يمتد إلى جميع الأرض، فقد كان ممتداً في حدود بلاد الشام إلى صنعاء والفرات، ويؤكد هذا قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ وكلمة ﴿ من ﴾ تدل على التبعيض، فكما أنَّ جميع الإنس لم يكونوا في عداد جيش سليمان، كذلك لم يكن جميع الجن والطير في عداد جيشه، ولو كان جميع الطيور في عداد جيشه لما استطاع معرفة غياب واحد من الطير هو الهدهد، عندما تفقد سليمان الطير ففقد الهدهد، وقال كما حكى الله عنه في سورة النمل: ﴿ مالي لا أرى الهـدهد، أم كان من الغائبين ﴾[2] مما يدل على أن هدهداً خاصاً من أمة الهداهد كان في عداد جيش سليمان، ومهما قلنا في عدد المسخَّرين لسليمان عليه السلام من الجن والطير، وحشرهم في عداد جيشه، فإن تسخيرهم له أمر خارق للعادة ومعجزات كبيرة تفضـل الله سبحانه بها على نبيه سليمان عليه السلام.

---

(١) ١٧ النمل.

(٢) ٢٠ النمل.

وقول الله سبحانه في وصف جنود سليمان: ﴿ فهم يوزعون ﴾ وتفقدُ سليمان عليه السلام للطير يدل على أنه كان ضابطاً لشؤون جنوده رغم كثرة عددهم وتنوع أجناسهم واختلافهم، لأن معنى (يوزعون) يُكفون ويُمنعون من الفوضى والاختلاف، فلكل طائفة منهم وازع يزعهم ويكفُّهم ويضبطهم، وسليمان عليه السلام يسيطر على الجميع ويراقبهم ويتفقدهم، والآية الكريمة ﴿ وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ تدل على أن جيش سليمان كان يتصف بالقوة والنظام، كما يدل على أنه عليه السلام كان يتصف بكمال اليقظة والحزم في قيادته لمثل هذا الجيش الذي ما عُرف مثله بين الجيوش على مدى الدهور والأزمان.

الموكب العظيم

ويسير سليمان عليه السلام على رأس جنوده في موكبه العظيم، ويسير في ركابه الجن والإنس والطير، ويظهر من قوله تعالى: ﴿ حتى إذا أتوا على وادي النمل ﴾ أنَّ سليمان وجنوده كانوا يسيرون على الأرض، ويستعملون في سفرهم وسيرهم وسائل الانتقال المعروفة لدى الإنسان في ذلك الزمان، إلا أنه لا بدَّ أن تكون هذه الوسائل أضخم وأفخم من غيرها لتتناسب مع قوة جيش سليمان، ومع الإمكانيات الصناعية الضخمة والقوى الهائلة التي أنعم الله بها على سليمان عندما سخر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات. والمحاريب أماكن العبادة، والتماثيل الصور المجسمة للأشياء، وليس فيه دليل على جواز صنع التماثيل للمخلوقات الحية في شرعنا الإسلامي، لأنه يمكن أن تكون التماثيل والمجسَّمات لغير المخلوقات الحية، وعلى كل فهو شرع من قبلنا، والشريعة الإسلامية تنهى عن صنع التماثيل والمجسمات والصور للمخلوقات الحية، ثبت

النهي في عدة أحاديث نبوية شريفة صريحة وصحيحة[1].

وأما الجفان والجواب والقدور الراسيات فهي أواني الطعام والشراب الكبيرة الضخمة التي كان سليمان يستعملها لإطعام جيشه الكبير العدد والمتنوع في الأجناس والعدد.

ويؤكد أن سليمان وجنوده كانوا يسافرون سائرين على الأرض لا طائرين فوق متن الريح في الجو، ما عُرف عنه عليه السلام من محبته للخيل وعنايته بها، لأنها عدة الجهاد التي يعتمد عليها في الحرب، وبلغ من عنايته وشغفه بها أنه كان يستعرضها ويمسح بيده سوقها وأعناقها، جاء هذا في قوله تعالى: ﴿ إذ عُرض عليه بالعَشيِّ الصافناتُ الجيادُ، فقال: إني أحببت حبَّ الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب. رُدُّوها عليّ، فطفق مَسْحاً بالسوق والأعناق ﴾[2].

هل استعمل سليمان بساط الريح

وقصة بساط الريح الذي ذكره كثير من المفسرين، وأن سليمان عليه السلام كان يستعمله في أسفاره ورحلاته ليس له ذكرٌ في القرآن الكريم ولا في أيّ أثرٍ صحيح، والمذكور في القرآن الكريم أن الله سبحانه سَخَّر الريح لسليمان، وجاء وصفها في آية سورة الأنبياء بأنها ريح عاصفة وبأنها تجري بأمره، أي أمر سليمان عليه السلام قال تعالى: ﴿ ولسليمان الريح عاصفةً تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا

(١) منها ما رواه مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرون» وقال أيضاً: «من صوَّرَ صورة في الدنيا كُلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة، وليس بنافخ» وقال أيضاً: «الذين يصنعون الصور يعذبون يوم القيامة ـ يقال لهم: أحيُوا ما خلقتم».

(٢) ٣١ ـ ٣٣ ص.

فيها، وكنا بكل شيء عالمين ﴾[1]. بينما جاء وصفها في سورة ص بأنها تجري رُخاء، قال تعالى: ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب ﴾[2]. فهل كان تسخير الريح لسليمان أنها تتحول بأمر سليمان ومشيئته من ريح عاصفةٍ مدمِّرة إلى ريح رخية طيبة، تبشر بقدوم الخيرات ونزول البركات، وتدفع السفن الجاريات في أعماق البحار، وهذا من أعظم فوائد الرياح الرخية فقد قال تعالى: ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مُبَشِّراتٍ وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[3].

ولا بدَّ أنه كان لسليمان عليه السلام أسطول بحري من السفن فمملكته تطل على سواحل طويلة في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وقد عرف عن أهل هذه البلاد قديماً تمرسهم بركوب البحر وخبرتهم في بناء السفن.

وقد نبّه علماء التفسير إلى الاختلاف في وصف الريح المسخَّرة لسليمان في سورة ـ الأنبياء ـ وصفت بأنها عاصفة، ووصفها في سورة ـ ص ـ بأنها تجري بأمره رُخاء، والعاصفة غير التي تجري رخاءً.

وقد أجابوا للتوفيق بينهما بجوابين:

أولهما: أنها عاصفة في بعض الأوقات، ولينة رخية في بعضها الآخر، بحسب الحاجة.

الثاني: أنها رُخاء في نفسها عاصفة في عملها، مع طاعتها لسليمان وهبوبها على حسب ما يريد[4]، إلا أنَّ هاتين الإجابتين لا

---

(١) ٨١ الأنبياء.

(٢) ٣٦ ص.

(٣) ٤٦ الروم.

(٤) انظر أضواء البيان جـ ٤/٦٧٦.

تنسجمان مع وصف الله سبحانه للريحِ العاصف بأنها الريح المهلكة المدمرة. قال تعالى: ﴿هو الذي يُسيِّركم في البر والبحر، حتى إذا كنتم في الفُلْك وجَرَيْنَ بهم بريح طيبة وفرحوا بها، جاءتها ريحٌ عاصفٌ، وجاءهم الموجُ من كل مكان، وظنوا أنهم أُحيط بهم، دَعَوُا الله مخْلِصينَ له الدين: لئن أنجيتنا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين﴾[1].

ومع هذا فنحن لا ننكر إمكانية وجود بساط الريح وجلوس سليمان عليه مع حاشيته وجنوده، وحمل الريح له إلى حيث يريد. فالله سبحانه قادر على كل شيء، ونحن نشاهد كيف تمكن الإنسان في العصر الحاضر من ركوب الطائرات بسبب ما فتح الله على الإنسان من أنواع العلوم والمعارف في مجالات الطيران وعلوم الفضاء.

ولكن ذلك لم يثبت بنص من القرآن والسنة.

والنص القرآني يقرر كما مرّ معنا تسخير الريح وهي عاصفة لسليمان تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها، وهي في الغالب بلاد الشام، لسبق الإشارة إليها بهذه الصفة في قصة إبراهيم عليه السلام.

إنَّ تسخير الريح لنبي الله سليمان عليه السلام وتحويلها من ريح عاصفةٍ مدمرة إلى رياح رخية طيبة معجزة كبرى وآية عظمى خارقة للعادة، صحيح أن الإنسان استفاد قديماً من قوة الرياح في تسيير السفن في البحر، واستفاد حديثاً من قوة الهواء في تطيير الطائرات؛ إلا أنه لم يستطع أن يخضع الريح لمشيئته، وأن يجعلها تتوجه حسب إرادته، بل إن الإنسان ليعجز عن حماية نفسه من سطوة الريح العاصفة وتدميرها، ولا يزال يعاني ما يعاني من أعاصيرها المدمرة، وفي كل يوم تطالعنا الأخبار عن الفواجع والنكبات التي تتركها الأعاصير المدمرة في كل بلد تمر عليه.

---

(١) ٢٢ يونس.

كلام النمل

إنَّ قوله تبارك وتعالى: ﴿حتى إذا أتَوا على وادي النمل قالت نملةٌ: يا أيها النملُ ادخلوا مساكنَكم لا يَحْطِمَنَّكم سليمانُ وجنودُه وهم لا يشعرون﴾[1]. يثبت وجود لغة للنمل يتخاطبون بها فيما بينهم، وسبق أن ذكرت في أول الكتاب أنَّ النمل يعيش في مجتمعات كبيرة ومنظمة، تفوق في نظامها ودقتها النظام الاجتماعي لكثير من المجتمعات البشرية، فلا بدَّ أن يكون لأفراد المجتمع لغة تفاهم وتعارف فيما بينهم، والنص القرآني الكريم يؤكد وجود لغة التفاهم هذه في كلام النملة، فالقول بأن النمل يتعارفون فيما بينهم باللوامس الطويلة التي خلقها الله في أجسامهم أو برائحة عشيّة خاصة، يتعارض مع ما ذكر بالقرآن الكريم من كلام النملة الذي سمعه نبي الله سليمان بقدرة الله سبحانه.

إن سماع كلام النملة معجزة لسليمان عليه السلام قابلها بالتبسم من قولها، وبالاعتراف بفضل الله عليه وبشكره والضراعة إليه سبحانه: ﴿فتبسم ضاحكاً من قولها وقال: ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ، وأن أعملَ صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾[2].

وقوله عليه السلام أوزعني أن أشكر نعمتك معناه: اجمعني كلي واجمع طاقاتي كلها أولها على آخرها، وهو المدلول اللغوي لكلمة (أوزعني) لتكون كلها في شكر نعمتك[3] وهذا التعبير يؤكد أن سماع سليمان لكلام النملة قد مسّ قلبه وهزّ وجدانه، وهو يعيش حقيقة المعجزة الكبرى التي أكرمه الله سبحانه بها عندما أسمعه كلام النملة.

---

(١) ١٨ النمل.

(٢) ١٩ النمل.

(٣) انظر في ظلال القرآن.

وقد أثبت العلم حديثاً كما سبق وذكرت أن النمل يمكنه أن يتعرف على بعض الذبذبات، فلماذا لا تكون هذه الذبذبات هي الذبذبات الصوتية الناتجة عن كلام النمل، وأن الله سبحانه أقدر سليمان على أن يسمع هذه الذبذبات ويفهم مضمون كلام النمل فيها.

حكمة نملة

ونقف عند سماع سليمان عليه السلام لكلام النملة أمام عددٍ من المعجزات الكبيرة، أولها معجزة سماع سليمان لكلام النملة، وثانيها: إدراك النملة أن السائرين في وادي النمل هم سليمان وجنوده، وثالثها: ما تضمنه كلام النملة من الحكمة والتعقل والتبصر بعواقب الأمور، ورابعها: معرفة النملة لسليمان وأنه نبي كريم لا يقصد أحداً بالأذى حتى ولو كان نملة صغيرة، ولهذا قالت: ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنَّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾.

إنَّ كل معجزة من هذه المعجزات أكبر من سابقتها، فالمعجزة الأولى ممَّا علمه الله سبحانه لسليمان، وهو إنسان ونبي قابل للعلم والمعرفة، وأما المعجزة الثانية: فهي في تعليم الله سبحانه لهذه الحشرة الصغيرة ما علمها، حتى أدركت أن القادمين هم سليمان وجنوده، وأما المعجزة الثالثة فما تضمنه كلام النملة من حكمة وتعقل وتبصر وتقدير للنتائج، ممَّا لا نرى مثله عند كثير من الناس الذين زودهم الله سبحانه بوسائل الإدراك من عقل وسمع وبصر، ومكنهم من التعلم والتفكر والاعتبار، ولكنهم مع الأسف لم يعتبروا ولم يتفكروا.

أدركت النملة الخطر وعرفت مصدره، كما أدركت أنه لا يمكن لمثل النمل أن يتصدى لهذا الخطر ويواجهه، وعرفتْ أنَّ خير وسيلة للنجاة والسلامة عدم مواجهته والانسحاب من وجهه إلى مكان أمين حتى يزول، ولهذا أمرت النمل أن يدخلوا مساكنهم، وهكذا تمكنت

هذه النملة بحكمتها وتبصرها بعواقب الأمور أن تنقذ نفسها وأمتها من الخطر.

إنها عرفت حدود إمكاناتها، كما عرفت مدى الخطر الذي يواجهها، فوقفت عند حدها رغم النزعة العدوانية القتالية المعروفة لدى النمل، ورحم الله امرءاً عرف حدّه كما عرفته هذه النملة الحكيمة، وعرف مدى القوة التي يواجهها كما عرفت هذه النملة الحكيمة، واتخذ قراره بحزم وقوة ووضوح وسرعة كما فعلت هذه النملة الحكيمة، لقد جاء قرارها في وقته المناسب حكيماً وسريعاً، فدرأت به المخاطر عن مجتمعها وأمتها.

فمتى يكون لنا حكمة هذه النملة، متى نتدبر آيات الله سبحانه في كتابه الكريم حق التدبر، وندرك عمق ما فيها من حكم وأحكام تأخذ بأيدينا إن أحسنًا تطبيقها إلى الآمن والعزة والسلام، متى نعرف حقيقة ما يدور حولنا وحجم القوى الخفية التي تتصارع من حولنا وتتكالب علينا ونعرف حجمنا بالنسبة لها فلا نغتر ولا نجهل؟!!.

وإنها لنملة مخلصة لأمتها ولأبناء مجتمعها، فلم تبادر إلى تأمين نفسها والانسحاب من وجه الخطر دون أمتها وإخوتها، بل وقفت في وجه الخطر تنصحهم وتبين لهم طريق السلامة وأسباب تحصيل العافية.

هدهد سليمان

اتصف النبي الملك سليمان عليه السلام بصفات اليقظة والدقة والحزم في إدارة شؤون مملكته، فهو يتفقد جنده، ولا يغفل عن جندي واحد منهم رغم كثرة عددهم واختلاف أجناسهم وأنواعهم.

﴿ وتفقد الطير فقال: مالي لا أرى الهدهد أم كان من

الغائبين؟ ﴾[1] ولما لم ير الهدهد تساءل قائلاً: ﴿ مالي لا أرى الهدهد ﴾، وهو يظن أنَّ الهدهد حاضر، ولكنه لا يراه بسبب ساتر أو غيره، ولما تبيَّن له أنه غائب أضرب عن كلامه الأول وقرر أنه من الغائبين، ولا بدَّ من الحزم في مثل هذه الحالة حتى لا تكون سابقة سيئة لغيره من الجنود، ومن ثَمَّ أعلن سليمان أنه سيعاقبه عقاباً شديداً ﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً، أو لأذبحنَّه ﴾.

ولا بد أيضاً في مثل هذه الحالة أن تظهر صفة النبي الملك العادل عند سليمان عليه السلام، فهو ليس ملكاً جباراً في الأرض، ولم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاءً نهائياً، ولهذا ختم تهديده بقوله: ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾[2]. أي بحجة واضحة قوية تبرر سبب غيابه وتبين عذره في ذلك.

ولم ينتظر سليمان طويلاً حتى جاء الهدهد الذي كان يعرف حزم الملك وشدته، فبدأ حديثه بمفاجأة كبيرة أظهر فيها سبباً وجيهاً لغيابه ﴿فمكث غير بعيدٍ فقال: أحطتُ بما لم تُحِطْ به، وجئتُك من سبأٍ بنبإٍ يقين. إني وجدتُ امرأة تملكهم، وأوتيتْ من كل شيء، ولها عرش عظيم. وجدتُها وقومَها يسجدون للشمس من دون الله، وزيَّن لهم الشيطانُ أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألَّا يسجدوا لله الذي يُخرج الخَبءَ في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون. الله لا إلَه إلا هو ربُّ العرش العظيم ﴾[3].

والمتأمل لكلام الهدهد يجد نفسه أمام هدهد أريب عجيب صاحب إدراك وفهم وإيمان، فهو يدرك أنَّ هذه ملكة، وأن مَنْ حولها

---

(١) ٢٠ النمل.

(٢) ٢١ النمل.

(٣) ٢٢ ـ ٢٦ النمل.

رعية لها، ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله، ويعرف أن السجود لا ينبغي إلاَّ لله الذي يخرج الخَبْءَ في السموات والأرض، وأنه سبحانه هو رب العرش العظيم!.

الإدراك عند الحيوان

فهل لجميع الطيور والهداهد مثل هذا الإدراك والفهم والإيمان؟!. أم أن هدهد سليمان هدهد خاص آتاه الله سبحانه هذا الإدراك الخاص على سبيل المعجزة الخارقة للعادة تكريماً لنبيه سليمان عليه السلام؟.

ذهب سيد قطب رحمه الله إلى أنَّ هدهد سليمان قد وُهب إدراكاً خاصاً لا يرقى إليه إدراك سائر الهداهد والطير بصفة عامة، ولا بدَّ أن هذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التي سُخِّرت لسليمان، لا لجميع الهداهد وجميع الطيور، فإن نوع الإدراك الذي ظهر من ذلك الهدهد الخاص في مستوى يعادل مستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من الناس(١).

لكني لا أرى مانعاً أن يكون إدراك هدهد سليمان هذا ومعرفته بالله سبحانه وإنكاره على من يعبد غير الله عاماً عند جميع الهداهد والطيور، ولا أرى ثمة دليلاً يخص هدهد سليمان بهذا الإدراك وهذه المعرفة وينفيهما عن بقية أفراد جنسه ونوعه، صحيح أنَّ إدراك الطير والحيوان لا يصل في كثير من الأمور إلى مستوى إدراك الإنسان. لكنه في أمر معرفة الخالق العظيم سبحانه قد يصل إلى مستوى الإنسان، بل قد يفوقه في بعض الأحيان فإننا نشاهد أكثر الناس مع ما لديهم من ذكاء وإدراك رفيع المستوى، يعرضون عن الله سبحانه فلا يؤمنون به الإيمان الحق، ولا يعبدونه العبادة الصحيحة، وينحطون بذلك إلى رتبة أدنى

---

(١) انظر في ظلال القرآن ١٩/١٤٥.

وأحط من مراتب الطير والحيوان، وتصديق ذلك في قوله تعالى: ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلاً. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾[1].

وقد مرّ معنا من قريب حديث النملة وإدراكها وحكمتها، فقد رأينا كيف عرفت هذه الحشرة الصغيرة أن القادمين هم سليمان وجنوده، وأن ما يمكن أن يصيبهم منهم ليس مقصوداً لأن سليمان نبي معصوم، فلا يقصد أي مخلوق بضرر أو ظلم ولو كان نملةً صغيرة، ولهذا قالت كما مرّ معنا: ﴿ لا يحطمنَّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾، فهل كان هذا الإدراك خاصاً بهذه النملة، أم أنه إدراك عام يشترك فيه جميع أفراد نوعها وجنسها من النمل؟!.

التسبيح بحمد الله

لقد أثبتت النصوص القرآنية الكريمة أن جميع المخلوقات تسبِّح بحمد خالقها وتمجده، ولكن الإنسان محجوب عن سماع هذا التسبيح والتمجيد، كي يكون إيمان المؤمنين من الناس إيماناً بالغيب، قائماً على تصديق الخبر الصادق الذي جاء به الرسل والأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ تسبِّح له السموات السبع والأرض ومن فيهنَّ، وإنْ من شيء إلَّا يسبحُ بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليماً غفوراً ﴾[2].

وقد أخبر ربنا سبحانه في القرآن الكريم أن للطيور صلاتها الخاصة بها إلى جانب تسبيحها وتمجيدها لخالقها العظيم سبحانه

---

(١) ٤٣ ـ ٤٤ الفرقان.

(٢) ٤٤ الإسراء.

وتعالى، فقال جلّ شأنه: ﴿ألم تَرَ أنَّ الله يسبح له مَنْ في السموات والأرض، والطيرُ صافات كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون﴾[1].

وجاء في كثير من الأحاديث الصحيحة أن بعض الجمادات من أحجار وجبال وأشجار كانت تسلِّم على رسول الله ﷺ، فعن علي رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله[2] وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ بمكة حجراً كان يسلِّم عليّ ليالي بُعثت، إني لأعرفه الآن»[3] وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر، فحنَّ الجذع فأتاه فاحتضنه فسكن، فقال: «لو لم أحتضنه لحنّ إلى يوم القيامة»[4].

كل ذلك يؤكد لنا أن إدراك هدهد سليمان أن الله وحده سبحانه الذي يستحق أن يعبد وإنكاره على عُبَّاد الشمس من دون الله، ليس إدراكاً خاصاً به بل يجوز أن تشاركه فيه جميع الهداهد والطير والحيوان، إنها تعرف بالفطرة التي خلقها الله فيها أنَّ لها خالقاً ورازقاً تتجه إليه بفطرتها مسبِّحةً وممجدة بحمده سبحانه، اقرأ جواب موسى عليه السلام لفرعون عندما سأل موسى قائلاً: ﴿قال فمَنْ ربُّكما يا موسى؟. قال: ربُّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[5].

وهذه الفطرة هي نفس الفطرة التي خلق الله سبحانه الناس عليها:

---

(١) ٤١ النور.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه.

(٣) أخرجه مسلم والترمذي.

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه، وله طرق كثيرة عن عدد كبير من الصحابة.

(٥) ٤٩ ـ ٥٠ طه.

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيِّمُ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1] لأنهم ينحرفون عن أصل الفطرة التي خُلقوا عليها بسبب الاختيار والكسب الذي جعله الله في الإنسان ليكون مخلوقاً مكلفاً ومسؤولاً، فكان بهذا الانحراف عن أصل الفطرة وعبادته لغير الله سبحانه إنساناً ظلوماً جهولاً ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبالِ، فأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها، وأشْفَقْنَ منها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾[2][3].

الكتاب الكريم

وعندما سمع سليمان عليه السلام كلام الهدهد وما فيه من التعريض بقصور علم سليمان ومحدوديته مع أنه نبي وملك (أحطتُ بما لم تُحِطْ به)؛ لم ينزعج من هذا التعريض، ولم يجعله يغضب على الهدهد شأن المعجبين بعلمهم المغرورين بسلطانهم وملكهم، فهو نبي موصول القلب بالله سبحانه، يعلم أنّ الله سبحانه ألهم الهدهد أن يخاطبه بهذا الخطاب ابتلاءً منه سبحانه وتعالى، لتتحاقر عنده نفسه ويتصاغر لديه علمه أمام مخلوق صغير من مخلوقات الله سبحانه، أحاط علماً بما لم يحط به سليمان عليه السلام، فلا ينبغي لعالم مهما بلغ علمه أن يعجب به، فثمة علوم كثيرة يجهلها، وما يجهله أكثر بكثير مما يعلمه، وكثيراً ما تجد عند بعض الحيوانات علماً لا يوجد مثله عند كثير من الناس.

---

(١) ٣٠ الروم.

(٢) ٧٢ الأحزاب.

(٣) انظر كتابي الأول في هذه السلسلة (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب) وما كتبته حول هذه الآية.

وما أكثر ما تعلم الإنسان من ملاحظته للحيوان، وفي آيات الله سبحانه في التنزيل الحكيم شواهد عديدة للاعتبار، اقرأ قصة أول جريمة قتل في الأرض عندما قتل الإنسان أخاه الإنسان، ووقف متحيراً لا يدري ما يصنع بجسد أخيه المقتول، حتى بعث الله غراباً يبحث في الأرض ليعلمه كيف يصنع ﴿ فطوَّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين. فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه، قال: يا ويلتى أعجزتُ أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين ﴾[1].

وكان تعليق سليمان عليه السلام على كلام الهدهد أنه ﴿ قال: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾[2].

ثم كتب عليه السلام كتاباً وأمر الهدهد أن يذهب به إلى ملكتهم ﴿ اذهب بكتابي هذا فألقِه إليهم، ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴾[3]. لقد كان الكتاب كريماً كما وصفته الملكة لرجال دولتها عندما جمعتهم لتشاورهم في شأنه ﴿ قالت: يا أيهاالملأ إني أُلقي إليّ كتابٌ كريمٌ . إنه من سليمان وإنّه باسم الله الرحمن الرحيم. ألّا تعلو عليَّ وأتوني مسلمين ﴾[4].

ولا شك أنَّ الكتاب كريم لكرم مرسله، أو لكرم مضمونه، أولهما معاً. أما كرم مرسله فواضح: فلا بدَّ أن تكون ملكة سبأ قد سمعت عن سليمان وقوته وسعة مملكته، ولهذا لمَّا تحدثت عن مرسل الكتاب قالت: ﴿ إنه من سليمان ﴾ ولم تزد أكثر من ذلك في التعريف بمرسله،

---

(١) ٣٠ - ٣١ المائدة.
(٢) ٢٧ النمل.
(٣) ٢٨ النمل.
(٤) ٢٩ - ٣١ النمل.

وهذا دليل على أن سليمان عليه السلام كان معروفاً عندها وعند قادتها ووزرائها ومستشاريها، إلا أنَّ معرفتهم له أنه ملك فقط، وما كانوا يعلمون شيئاً عن أمر نبوته ورسالته ودعوته إلى عبادة الله وحده والخضوع لدينه وشرعه.

وأما كرم مضمون الكتاب فقد كان في غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود، لتضمنه معاني كثيرةً في ألفاظٍ قليلة، ولاشتماله على البسملة الدالة على الخالق العظيم سبحانه وعلى صفاته، كما أنَّ فيه أيضاً النهي عن الترفع والتكبر الذي يصرف الإنسان عن معرفة الحقيقة والانقياد لها، والأمر بالإسلام والاستسلام لله رب العالمين، إنها دعوة النبوة وأكرم بها من دعوة، لا دعوة الملك والسلطنة والسيطرة.

الهديةُ الرشوة

استشارت الملكةُ رجال دولتها في أمر كتاب سليمان عليه السلام، ﴿ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري، ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون ﴾[1]. وبعد أن سمعت رأيهم وقولهم ﴿ قالوا: نحن أولو قوةٍ وأولو بأس شديد، والأمر إليك فانظري: ماذا تأمرين ﴾[2]. قررت أن ترسل إلى سليمان هدية ثمينة ﴿وإني مرسلةٌ إليهم بهدية فناظرةٌ بم يرجع المرسلون﴾، وظهر في قرارها دهاء المرأة وكيدها واحتيالها، فقد أرادت أن تحقق بهذه الهدية عدة مآرب: فبها تتعرف على مدى صدق سليمان في دعوته إلى عبادة الواحد الأحد الرحمن الرحيم، كما أرادت أن تصانعه وتداهنه وتشتري بهذه الهدية مودته وصداقته، وتبعد خطره عن مملكتها وبلادها، فقد سبق أن قالت: ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية

---

(١) ٣٢ النمل.

(٢) ٣٣ النمل.

أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون ﴾[1].

ولكن كيدها لم ينجح، ومكرها لم يفلح، فقد رجع رسلها بهديتها خائبين، وهم يحملون مع الهدية تهديد سليمان ووعيده، ﴿ ارجعِ إليهم فلنأتينَّهم بجنود لا قِبَلَ لهم بها ولنخرجنَّهم منها أذلةً وهم صاغرون ﴾[2].

إنها إذن دعوة النبوة المنزهة عن كل أغراض الدنيا، المستعلية على أموال الأرض وكنوزها، المبرأة من شهوات النفس وميولها، المخلصة والخالصة لله سبحانه، فلا دور للمال في مجال النبوة ولا عمل له معها، ولهذا قال نبي الله سليمان لرسول الملكة ومن معه من حاملي الهدية: ﴿ أتمدونن بمال؟ فما آتاني الله خيرٌ مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾[3]. فالذين يفرحون بالهدية هم طلاب الدنيا وعبيد الدرهم والدينار، أولئك الذين ينشغلون بالنعمة عن المنعم، أما الأنبياء عليهم السلام ومن سار على طريقهم واقتفى آثارهم فقلوبهم متعلقة بالمنعم، بالله سبحانه؛ وإذا وصلتهم نعمة منه سبحانه كان فرحهم بالمنعم لا بالنعمة، وجعلوا من النعمة وسيلةً يتقربون بها إلى الله سبحانه عبادةً وشكراً.

وقد يقال: أليس من شأن الأنبياء أن يقبلوا الهدية؟. فقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقبل الهدية ويكافىء عليها؛ وأقول: الأنبياء عليهم السلام يقبلون الهدايا إذا كانت هدايا، أما إذا كانت رشاوى، فهم صلوات الله وسلامه عليهم أبعد الناس عنها وأطهر الناس منها، وكان نبينا ﷺ يقبل الهدية ويأكل منها ويكافىء عليها، كما ذكرت عائشة

---

(١) ٣٤ النمل.
(٢) ٣٧ النمل.
(٣) ٣٦ النمل.

رضي الله عنها فقد قالت: (كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها)[1] وكان ﷺ يقول: «تهادَوا، إن الهدية تذهب وَحَر الصدر»[2] ولكنه ﷺ في الوقت نفسه كان يحذر من الرشوة التي تسمَّى زوراً وكذباً باسم الهدية ويقول: «خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه»[3].

وكان ﷺ يرى أيضاً أن الهدايا التي تقدم لأصحاب المراتب والمناصب من أجل ما هم فيه من الرتبة والمنصب رشاوى، ولهذا قال ﷺ: «هدايا العمال غلول»[4].

ولما استعمل النبي ﷺ رجلاً ليجمع مال الصدقة وجاء الرجل بالمال فدفعه إلى النبي ﷺ فقال: هذا لكم وهذا أُهدي لي، قام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «ما بالُ عاملٍ أبعثه فيقول: هذا لكم وهذا أُهديَ لي! أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمه حتى ينظرَ أيُهدى إليه أم لا، والذي نفسُ محمد بيده لا ينال أحدٌ منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، بعير له رُغاء أو بقرة لها خُوار، أو شاة تيْعر ـ تصيح ـ» ثم رفع يديه حتى رأينا عَفْرتي إبطيه ـ بياض إبطيه ـ ثم قال: «اللهم هل بلغت» مرتين[5].

عرش بلقيس

لما رأت الملكة بلقيس هداياها تعود إليها، وسمعت تهديد سليمان ووعيده، عرفت أنها لا طاقة لها بمحاربته، ولا قوة لها على

---

(١) أخرجه البخاري وأبو داوود والترمذي.

(٢) الترمذي، وحر الصدر: غشه ووساوسه.

(٣) أخرجه الطبراني عن معاذ.

(٤) أخرجه أحمد في المسند.

(٥) صحيح مسلم.

مدافعته، فقوتها على شدتها وبأسها لا تكافىء قوته، فقررت أن تذهب إليه كما أمرها طائعة صاغرة.

وأراد سليمان عليه السلام أن يظهر لملكة سبأ بعض ما سخَّر الله سبحانه له من القُوى وما وهب له من الملك، لتعلم صدق دعوته وصحة نبوته، فتسلم لله تعالى، وتدخل في دينه، فجمع كبار رجال مملكته وقادة جنده ووزرائه وقال لهم: ﴿ يا أيها الملأ: أيُّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وإنِّي عليه لقوي أمين ﴾[1].

وكلمة عفريت تعني الذي يغلب من يصارعه ويعفره بالتراب، أي: يمرغه بالتراب، فهي لا تختص بالجن، ولهذا بيّن القرآن الكريم أنه عفريت من الجن، وقوله: ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ أي قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه. وكان سليمان عليه السلام يجلس لتدبير شؤون مملكته إلى نصف النهار.

ويبدو أن سليمان عليه السلام استبطأ إتيان العرش بهذه المدة التي عرضها عفريت الجن، وعندئذ ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾[2].

والمعنى أنك ترسل نظرك نحو شيء فقبل أن ترده إليك أحضر عرشها بين يديك، وهذا غاية في السرعة لأن ردّ الطرف مثل لمح البصر في السرعة، ولهذا أخبر الله سبحانه عن إتيان العرش بعد انتهاء كلامه مباشرة دون أن يكون ثمة أدنى فاصل زمني، فقال تعالى بعد ذلك: ﴿ فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكرُ أم أكفر؟

(١) ٣٨ - ٣٩ النمل.
(٢) ٤٠ النمل.

ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾[1].

تُرى من هذا الذي عنده علم من الكتاب، والذي أقدره الله سبحانه على هذا الأمر الخارق المعجز، لم تكشف الآيات هويته، ولم تذكر اسمه، إلا أن الآيات دلَّت على أنه من حاشية سليمان عليه السلام، فهو من الملأ الذين خاطبهم سليمان عندما قال: ﴿ يا أيُّها الملأ أيُّكم يأتيني بعرشها ﴾ وكان فيهم من الإنس والجن والطير كما سبق بيانه في الحديث عن جنود سليمان، وهو حتماً ليس من الجن، لأنه لو كان منهم لبينته الآيات كما بينت حال العفريت، كما أن وصف الله سبحانه له بأنه عنده علم من الكتاب يخرجه عن دائرة الطير، فلا بدَّ إذن أن يكون من الإنس.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنه سليمان نفسه وجاء وصف الله سبحانه له ﴿ الذي عنده علم من الكتاب ﴾ للدلالة على شرف العلم، ويقول أصحاب هذا الرأي: إن صيغة الخطاب في قوله: ﴿ أنا آتيك ﴾ لا ترده، لأنه من كلام سليمان للعفريت، لكنه قول لا يخلو من تكلُّف لأن سياق الآيات يدل على أن الذي عنده علم من الكتاب غير سليمان عليه السلام، إنه كما قال سيد قطب رحمه الله: رجل مؤمن على اتصال بالله، موهوب سراً من الله؛ يستمد منه القوة الكبرى التي لا تقف لها الحواجز والأبعاد[2].

الخصوصية لا تقتضي الأفضلية

ولا يقال: كيف يخلق الله سبحانه هذا الخارق الكبير المعجز على يد رجلٍ من حاشية سليمان عليه السلام ولا يخلقه على يد سليمان نفسه؟! لأننا نقول: الخصوصية لا تقتضي الأفضلية، فالله سبحانه

---

(١) ٤٠ النمل.

(٢) انظر الظلال ١٩/١٤٨.

يخص من يشاء بما يشاء ولما يشاء سبحانه وتعالى: ﴿ لا يُسأل عمَّا يفعل وهم يسألون ﴾[1]. ثم إنَّ خلق هذا الأمر المعجز الخارق على يد رجل من حاشية سليمان، أجراه الله وخلقه من أجل سليمان وبطلب منه، فهو وإن كان كرامة لهذا الرجل فهو في الحقيقة معجزة للنبي سليمان عليه السلام، ولهذا لما حدثت المعجزة ورأى العرش مستقراً عنده قال عليه السلام: ﴿ هذا من فضل ربي، ليبلوني أأشكر أم أكفر؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾.

هذا دليل على أن سليمان عليه السلام عرف أنه هو المقصود بهذه المعجزة الكبرى والنعمة العظمى، فانتفض قلبه أمام عظمة المنعم الذي تفضَّل عليه بهذه النعمة، واهتزت مشاعره وهو يستشعر أن النعمة على هذا النحو المعجز ابتلاء كبير ومخيف، يحتاج إلى الإقرار بفضل المنعم وبشكره على ما أنعم حتى يستطيع اجتياز الابتلاء بنجاح.

فلما رآه مستقراً عنده

لقد أثبت العلم الحديث إمكانية تحويل الأجسام المادية إلى قوة وطاقة إشعاعية، وذلك بتفتيت ذراتها، كما أثبت أيضاً إمكانية إعادتها إلى حالتها المادية السابقة، فهل تَّم نقل عرش بلقيس بهذه الوسيلة؟! هل تمّ تحويل العرش بقدرة الله تعالى إلى طاقة إشعاعية بتفتيت ذراته، ونُقل بسرعة الضوء التي تبلغ ١٨٠ ألف ميل في الثانية، ثم أُعيد إلى صورته المادية المحسوسة؟ وهل كلمة (مستقراً) في قوله تعالى: ﴿ فلما رآه مستقراً عنده ﴾ تشير إلى ذلك؟. لقد رأى بعض المفسرين القدامى أن كلمة (مستقراً) زائدة واجبة الحذف عند النحاة يغني عنها كلمة عنده، ولهذا فسروا معنى كلمة (مستقراً) بكلمة حاصلاً أو بكلمة ساكناً غير متحرك[2].

(١) ٢٣ الأنبياء.

(٢) انظر حاشية الشهاب على البيضاوي.

وعلى كل لا نستطيع الجزم بالطريقة التي تمّ بها إحضار عرش ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين في زمن يسير أقل من زمن ارتداد الطرف، ولا يسعنا إلا أن نقول إنه أمر معجز خارق للعادة، أجراه الله تبارك وتعالى الذي ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ وإن ما يتوصل إليه الإنسان من الحقائق العلمية يجعلنا نزداد يقيناً بصدق آيات الله، ومرة أخرى أذكر القارىء بقول الله سبحانه في آخر سورة النمل: ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها، وما ربُّك بغافل عما تعملون ﴾.

تنكير العرش

وأراد سليمان عليه السلام أن يختبر ذكاء الملكة بعد إحضار عرشها فأمر بتغيير معالم العرش ليرى مدى فراستها وفطنتها ﴿ قال: نكروا لها عرشها ننظرْ أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾[1]

ولا شك أنَّ رؤية الملكة لعرشها عند سليمان مفاجأة ضخمة لها لا تخطر على بالها، فعرشها في قصرها في عاصمة ملكها، وعليه أقفالها وحراسها، فكيف جيء به! ومن الذي جاء به؟!! ولكنه عرشها رغم التغيير والتنكير!.

وكان جوابها لما عُرض عليها العرش وسئلت: ﴿ أهكذا عرشك ﴾ دليلاً على شدة ذكائها وسرعة بديهتها وقوة فراستها؛ ﴿ قالت: كأنه هو ﴾ ولم تقل هو، لاحتمال أن يكون مثله لا عينه، فأتت بكلمة (كأن) التي تدل على غلبة الظن لجواز أن يكون عرشها، مع قيام الشك في أنه يكون عرشاً آخر غير عرشها، ثم بينت أنها عرفت صحة نبوة سليمان قبل معجزة إحضار العرش فقالت: ﴿ وأوتينا العلم

---

(١) ٤١ النمل.

من قبلها وكنا مسلمين ﴾[1] ولكن الذي صدها عن الإسلام وقبولها دعوة سليمان عليه السلام في أول الأمر، عبادتها لغير الله سبحانه أو كونها نشأت بين قوم كافرين ﴿ وصدّها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾[2].

خضوع وانقياد

ومعـرفة المعجـزة والعلم بصدق النبي لا يكفي للإيمان، فلا بدّ مع المعرفة والعلم من الإذعان والخضوع والانقياد لله تبارك وتعالى، والمظهر العملي للإذعان والخضوع لله سبحانه عبادته وحده والانقياد لأمره وشرعه، ولهذا أعدَّ سليمان عليه السلام مفاجأة أخرى للملكة تحملها على الانقياد والخضوع والاستسلام، فأمر ببناء قصر من زجاج، وأجرى الماء تحته بحيث يظهر للرائي كأنه لجة، ودعا الملكة إلى هذا القصر، ﴿ قيل لها ادخلي الصرح، فلما رأته حسبته لُجّة، وكشفت عن ساقيها، قال: إنه صرح مُمرَّد من قوارير ﴾ عندها أعلنت إسلامها وإيمانها واستسلامها المطلق لله سبحانه وتصديقها بنبوة سليمان عليه السلام، كما أقرت بأنها كانت ظالمة لنفسها بسبب كفرها ﴿ قالت ربِّ إني ظلمتُ نفسي وأسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين ﴾[3].

وهكذا كان إسلامها وخضوعها لله رب العالمين لا لسليمان عليه السلام، وقد جعلها إسلامها لله وخضوعها له في صف واحد مع سليمان، فالإسلام يجعل المغلوبين في صف الغالبين حتى يصبح الغالب والمغلوب أخوين في الله ومتساويين أمام شرع الله ربِّ العالمين.

---

(١) ٤٢ النمل.

(٢) ٤٣ النمل.

(٣) ٤٤ النمل.

الحق والإنسان

آمنت ملكة سبأ، وأسلمت لله سبحانه بعد أن أراها سليمان عليه السلام بعض ما آتاه الله سبحانه من البينات الواضحات والدلائل القاطعات التي تدل علىٰ صدق نبوته وصحة رسالته، فظهر بذلك أنها كانت تريد الحق وتنقاد له، مع ما كانت عليه من أبهة الملك وقوة السلطان.

والانقياد للحق والإذعان له بعد معرفته من السمات الطيبة والخصال المحمودة التي لا يتصف بها إلا الصفوة الممتازة من الناس، ولهذا ترىٰ أكثر الناس كافرين كما قال تعالىٰ: ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وذلك لأنهم لا ينقادون للحق ولا يقبلون به علىٰ الرغم من وضوح دلائله وظهور معالمه، فمعرفة الحق ليست مشكلة الإنسان، فالحق واضح ظاهر في كل زمان ومكان، ولكن المشكلة الكبرىٰ للإنسان أنه يضعف أمام أهواء نفسه وشهواته، فينقاد لها ويستسلم لأمرها، ويعرض عن الحق ويصدُّ عنه، إما عناداً وتكبراً وتجبراً، كما هو حال ثمود قوم صالح الذين أراهم الله الآية الواضحة المبصرة، فلم ينقادوا للحق، بل ازدادوا عتواً وتكبراً، وقتلوا الناقة المعجزة، ثم ائتمروا بنبي الله صالح وحاولوا قتله، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ أبطل مكرهم وأحبط كيدهم وأهلكهم بصيحة واحدة، كما أخبر سبحانه في سورة النمل فقال: ﴿ ولقد أرسلنا إلىٰ ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله، فإذا هم فريقان يختصمون * قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون * قالوا اطَّيرنا بك وبمن معك، قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون * وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون * قالوا تقاسموا بالله لنبيِّتَنَّه وأهله ثم لنقولنَّ لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنَّا لصادقون * ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنَّا دمرناهم وقومَهم أجمعين * فتلك بيوتُهم خاويةً بما ظلموا، إن في ذلك

لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[1].

اختلال القيم وانعكاس الموازين

وإما ينصرفون عن الحق بسبب استيلاء الشهوة علىٰ قلوبهم وسيطرتها علىٰ نفوسهم، فلا يبصرون إلا من منظار االشهوة التي أعمت أبصارهم وبصائرهم عن رؤية الحق ومعرفة الحقيقة، فكيف ينقادون للحق وقد سيطرت عليهم شهواتهم وغلبت علىٰ قلوبهم أهواؤهم ونزواتهم! وإذا ما ذكَّرهم نبيهم بالحق ودعاهم إلىٰ الإذعان له وقبَّح لهم حالهم، وقال لهم كما كان نبي الله لوط عليه السلام يقول لقومه الذين غلبت علىٰ قلوبهم شهواتهم وأهواؤهم: ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون * أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴾[2]. فكان جوابهم كما قال الله تعالى: ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾[3].

لقد اختلت القيم عندهم، وانعكست الموازين الأخلاقية لديهم، حتىٰ أصبح الشذوذ عن الفطرة أصلاً عندهم وقيمة أخلاقية شائعة بينهم، وأصبح المتمسكون بأصل الفطرة أناساً منبوذين ومحتقرين ومطاردين في مثل هذا المجتمع الفاسد، فكانت النتيجة أن أهلكهم الله سبحانه بعد أن نجَّى لوطاً والقلة القليلة المؤمنة ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ﴾[4].

---

(١) ٤٥ ـ ٥٣ النمل.
(٢) ٥٤ ـ ٥٥ النمل.
(٣) ٥٦ النمل.
(٤) ٥٧ ـ ٥٨ النمل.

وأمطرت أحجاراً

ولا تحسبن المطر الذي أهلكهم الله به مطراً معهوداً، بل كان مطراً من حجارة يتناسب مع الحالة الشاذة غير المعهودة، ومع القلوب القاسية المنتكسة إلىٰ درك الشهوات الشاذة، ولقد أخطأ سيد قطب رحمه الله في فهم هذه الآية عندما رأىٰ أن المراد منها هو المطر المعهود، فقد وصف الله سبحانه وتعالىٰ هذا المطر في عدة مواضع في كتابه الكريم منها قوله تعالىٰ: ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾[1].

ومنها قوله تعالىٰ أيضاً: ﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾[2].

فالقرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، وحاشا لكلام الله أن يتعارض أو يختلف.

الصالحون في الناس قليل

كان قوم صالح وقوم لوط المثال الفاسد للذين لا ينقادون للحق ولا يذعنون له، بينما كانت ملكة سبأ المثال الصالح الطيب للإنسان الذي يقبل بالحق ويذعن له عندما يستبين له ويتعرف عليه، ومثال هذا الإنسان كان فرداً واحداً هو هذه المرأة الملكة التي أوتيت من كل شيء من أسباب الملك والسلطان وذات العرش العظيم، بينما جاء مثال الإنسان الذي لا يرضىٰ بالحق ولا يذعن له في أمتين كبيرتين من الأمم التي بلغت الغاية في العناد والفساد.

---

(١) ٨٢ ـ ٨٣ هود.

(٢) ٧٤ الحجر.

وبهذا بين الله لنا أن الذين يرضون بالحق وينقادون له في الناس قليل، بل وقليل جداً، وهذا هو الواقع المشاهد بين الناس في كل زمان ومكان، وخاصة في العصور المتأخرة القريبة من يوم القيامة عندما تغلب الأمم المفسدة، وصدق رسول الله ﷺ الذي قال: «يقول الله عزّ وجلّ: يا آدم، فيقول: لبيك وسَعْديك والخير في يديك، قال: يقول: أخرجْ بَعْثَ النار. قال: وما بَعْثُ النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون. قال: فذاك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترىٰ الناس سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ولكن عذاب الله شديد. . .» الحديث[1].

وجاء في حديث آخر أنه ﷺ قال: «ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود أو كشعرة سوداء في ثور أبيض»[2].

وصدق الله سبحانه: ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً، فِطْرَة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[3] ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾.

حمد وسلام

فالحمد لله سبحانه الذي يهلك المعاندين المستكبرين والمفسدين مع كثرتهم، وسلام علىٰ عباده المصطفين الأخيار الذين ينقادون للحق ويذعنون له عندما يبصرون أعلامه وتشرق عليهم أنواره، ﴿ قل الحمد لله وسلام علىٰ عباده الذين اصطفىٰ ﴾[4].

---

(١) انظر صحيح مسلم.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ٣٠ الروم.

(٤) ٥٩ النمل.

أولئك هم الصفوة الممتازة من البشر بعد الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، الذين صدَّقوا برسالة الإسلام وآمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، ولم يروا عصا موسىٰ التي تتحول بإذن الله إلىٰ ثعبان، ولا ناقة صالح التي كانت أوضح برهان، ولا نار إبراهيم التي جعلها الله سبحانه برداً وسلاماً علىٰ إبراهيم عليه السلام، سمعوا فقط آيات التنزيل الحكيم يتلوها النبي الكر يم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فاقشعرت من عظمتها جلودهم، ثم لانت لها نفوسهم، وذلت وخضعت قلوبهم ﴿ الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانِي تقشعرُّ منه جلود الذين يخشَون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلىٰ ذكر الله، ذلك هدىٰ الله يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾(١).

الصدّيق الأول

أولئك هم الصديقون الذين بادروا إلىٰ التصديق برسالة الإسلام عندما قرعت أسماعهم وقلوبهم آيات القرآن الكريم والتنزيل الحكيم، فاكتفوا بها عن كل معجزة لأنهم رأوها أعظم معجزة وأكبر بينة ﴿ أو لم يكفهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب يُتلىٰ عليهم، إن في ذلك لرحمة وذكرىٰ لقوم يؤمنون ﴾(٢).

فلم يسألوا رسولهم ﷺ معجزة ثانية بعد أن سمعوا القرآن الكريم كما فعل من كان قبلهم من أتباع الأنبياء السابقين ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئل موسىٰ من قبل، ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلَّ سواء السبيل ﴾(٣).

وكان الصدِّيق الأول فيهم أبا بكر رضي الله عنه لأنه كان أسرعهم

---

(١) ٢٣ الزمر.

(٢) ٥١ العنكبوت.

(٣) ١٠٨ البقرة.

وأكثرهم تصديقاً كما قال ﷺ: «ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافيناه بها ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافيه الله تعالىٰ بها يوم القيامة. وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، وما عرضتُ الإسلام علىٰ أحد إلا كانت له كَبْوة إلا أبا بكر فإنه لم يتلعثم ـ يتردد ـ، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن صاحبكم خليل الله تعالىٰ»[1].

وكلما أنزل الله سبحانه علىٰ رسوله ﷺ آية أو سورة ازدادوا إيماناً مع إيمانهم وتصديقاً مع تصديقهم ﴿وإذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقول: أيكم زادته هذه إيماناً؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلىٰ رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾[2].

فالحمد لله سبحانه الذي أنزل القرآن، وسلام علىٰ عباده الصحابة الكرام رضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم، الذين بادروا إلىٰ الإيمان بالقرآن ورأوا به أعظم برهان وأكمل بيان، سلام عليهم من السلام الذي شرفهم بالإسلام ويدخلهم يوم القيامة برحمته وفضله دار السلام، اللهم اجعلنا من التابعين لهم بإحسان[3].

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) ١٢٤ ـ ١٢٥ التوبة.

(٣) ذكر جمهور المفسرين أن المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وسلام علىٰ عباده الذين اصطفىٰ﴾ الرسل والأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، وذهب بعضهم إلىٰ أن المراد منهم أصحاب محمد ﷺ، وقد أخرج ابن أبي شيبة والبزار وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: هم أصحاب محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم اصطفاهم الله لنبيه. وقد ذهبت إلىٰ هذا الرأي لأنه يتناسب مع موضوع السورة أكثر من الرأي الأول، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الآيات الخمس

ختم الله سبحانه آية الثناء على ذاته المقدسة والسلام على عباده المصطفين الأخيار بالحديث عن المشركين الأشرار، فقال جلّ شأنه: ﴿ ءآلله خيرٌ أمَّا يشركون ﴾ وهذا استفهام جمع الله سبحانه فيه بين التقرير والاستنكار، قرر الله فيه أنه سبحانه وحده المعبود بحق، لأنه سبحانه مبدأ كل خير ومصدره، واستنكر أن يكون له سبحانه شريك، وتهكم بحال المشركين لأنهم أشركوا معه سبحانه غيره.

وبعد هذا الاستفهام المعجز الذي بلغ الغاية في الإيجاز والإعجاز ذكر الله سبحانه في سورة النمل خمس آيات كريمات جاءت متسقة ومتفقة مع ما سبقها من قوله تعالى: ﴿ ءآلله خير أمَّا يشركون﴾ وهذه الآيات هي ﴿ أمَّـن خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها؛ أَءِلٰه مع الله بل هم قوم يـعْدلون * أمَّن جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً، أَءِلٰـه مع الله، بل أكثرهم لا يعلمون * أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض؛ أَءِلٰـه مع الله، قليلاً ما تذكَّرون. أمَّن يهديكم في ظلمات البر والبحر، ومن يرسل الرياح بُشْراً بين يدي رحمته؛ أَءِلٰـه مع الله، تعالى الله عما يشركون * أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده، ومن يرزقكم من السماء والأرض؛ أَءِلٰـه مع الله، قـل هاتـوا برهـانكم إن كنتم صادقين ﴾[1].

والمتأمل لهذه الآيات يجدها متفقة بطبيعة موضوعاتها، فكلها تعرض بعض الأدلة والبراهين الدالة على وحدانية الله سبحانه، وأنه وحده الخالق والمدبر لشؤون الخلق، فلا يستحق العبادة سواه، كما

---

(١) ٦٠ ـ ٦٤ النمل.

تذكِّر الإنسان ببعض المظاهر التي تدل على عظيم قدرته سبحانه وبديع صنعته وباهر حكمته، وتبين في الوقت نفسه فضل الله سبحانه على الإنسان بذكر بعض ما منَّ عليه به من جلائل النعم.

كما أن هذه الآيات الخمس تتفق بأسلوب العرض، فقد استعملت كلها أسلوب الاستفهام التقريري المنسجم مع ما سبقها في قوله تعالى: ﴿ ءآلله خيرٌ أمَّا يشركون ﴾ وفي هذا الأسلوب ما فيه من تأكيد للحقيقة وجزم بها، وقد استعملت الآيات كلها أداة استفهام واحدة ﴿ أمَّن ﴾ كأنها تشير بذلك إلى هدفها الواحد المشترك وهو تقرير وحدة الخالق سبحانه ﴿ أمَّن خلق السمواتِ والأرض ﴾ ﴿ أمن جعل الأرض قراراً ﴾ ﴿ أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ ﴿ أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ﴾ ﴿ أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾.

وجاء في الآيات كلها الاستفهام الإنكاري ﴿ أءلٰه مع الله ﴾ ليربط الآيات كلها بموضوعها الأساسي الواحد، وهو تقرير أن الإلّه واحد، وليربطها جميعاً مع ما سبقها من قوله تعالى: ﴿ ءآلله خير أما يشركون ﴾ وقد أعطىٰ كل ذلك الآيات الخمس إيقاعاً وجَرْساً خاصاً في الآذان والقلوب.

تقرير وبرهان

ويلاحظ المتدبِّر لخواتيم هذه الآيات الخمس أنها ختمت بتراكيب وجمل مختلفة في مبانيها وألفاظها ﴿ بل هم قوم يَعْدِلون ﴾ ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ﴿ قليلاً ما تذكَّرون ﴾ ﴿ تعالى الله عمّا يشركون ﴾ ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾، إلا أنها جميعها متفقة مع الموضوع الأساسي للآيات، وهو موضوع التوحيد، كما أن هذه النهايات منسجمة فيما بينها انسجاماً رائعاً معجزاً، فكل آية ختمت بخاتمة بحيث تكون تقريراً وبرهاناً لخاتمة الآية التي قبلها، فقد جاء

قوله تعالى في خاتمة الآية الأولى: ﴿ بل هم قوم يَعْدِلون ﴾ ببيان سبب شرك المشركين الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ ءآلله خير أمَّا يشركون ﴾ فإذا ما تساءل أحد لماذا أشرك المشركون؟ كان الجواب: لأنهم قوم يَعْدِلون عن عبادة الله سبحانه إلى عبادة غيره، أو لأنهم يعدلون مع الله سبحانه غيره من المخلوقات بوصفها بصفة من صفات الله التي لا يتصف بها أحد غيره، أو بأن ينسبوا إلى هذه المخلوقات بعض الأفعال التي لا يقدر عليها إلا الله.

ولماذا يعدلون عن عبادة الله أو يعدلون مع الله غيره؟ الجواب في خاتمة الآية التي بعدها في قوله تعالى: ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ تأمَّلْ دقة التعبير القرآني ﴿ أكثرهم ﴾ لأن بعضهم قد يضل عن علم ويكفر جحوداً واستكباراً.

ولماذا لا يعلمون حقائق التوحيد، وأدلته وبراهينه كثيرة وواضحة وقريبة؟! الجواب في خاتمة الآية التي بعدها في قوله تعالى: ﴿ قليلاً ما تذكَّرون ﴾ فالقوم لم يستعملوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم التي تمكنهم من معرفة وحدانية الخالق سبحانه ولهذا لم يتذكروا.

هاتوا برهانكم

إن جهل الإنسان بوحدانية الخالق سبحانه ليس عذراً مقبولاً يوم القيامة يخلِّصه من مسؤوليته أمام ربه وخالقه عن شركه وكفره به، لأنه سبحانه أعطىٰ كل إنسان مكلَّف وسائل التمكين التي تمكنه من معرفة وحدانية خالقه ورازقه، وهي: العقل، والسمع، والبصر، التي كثيراً ما ذكرت في آيات القرآن الكريم مجتمعة في معرض امتنان الله على الإنسان بها، فتعطيل الإنسان لهذه الوسائل وعدم تفكيره ونظره فيما حوله من أدلة كثيرة وقريبة تبين له وحدانية خالقه سبحانه، يجعله مسؤولاً يوم القيامة عن شركه وكفره.

إنك تجد عند أكثر المشركين قناعة كاملة بصحة العقائد الفاسدة الضالة التي يؤمنون بها، ولقد تكوَّنت هذه القناعة لديهم نتيجة تأثرهم الطويل بالبيئة الفاسدة المحيطة بهم أو بنوعية الثقافات المنحرفة التي تقدم لهم، وهذه القناعة تقف حاجزاً يحجزهم عن عقيدة التوحيد الحقة، وعن الإسلام والاستسلام لله سبحانه وحده، ولو أنَّهم أعملوا عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، ولو شيئاً قليلاً، لعرفوا فساد ما هم عليه من عقائد متعارضة ومتناقضة فيما بينها وغير متفقة مع بديهيات العقل ونوازع الفطرة السليمة التي فطرهم الله سبحانه عليها، فلا عذر لهم بجهلهم الناتج عن قصورهم في استعمال عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، لا عذر لهم وقد قصروا استعمال مواهبهم وملكاتهم الفكرية على تحقيق مطالبهم الجسدية، فانصرفوا بذلك عن أعظم الحقائق وأهمها التي تتصل بوجودهم ومصيرهم، وصدق الله سبحانه القائل: ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾[1].

قد يعذر الإنسان الذي يعيش في بلد كافر بجهله ببعض فروع الشريعة حتىٰ يتعلمها أو تتاح له فرصة تعلمها بانتقاله إلى بلد مسلم، أما جهله بأصل العقيدة القائمة على توحيد الخالق فلا يعذر الإنسان به ما دام يملك أهلية التفكير والنظر ومعرفة الحقيقة.

فالخالق واحد أحد وهو وحده المستحق للعبادة والطاعة والخضوع والإذعان، ويتنزَّه سبحانه عن كل مظاهر الشرك مهما كان لونها أو شكلها، ولهذا ختمت الآية الرابعة بقوله جلّ شأنه: ﴿ تعالى الله عما يشركون ﴾.

وليس ثمة أدنىٰ دليل يسند عقائد الشرك والكفر بالله وحده، الأدلة العلمية والبراهين القطعية تشهد كلها للتوحيد، وهي تتحدى المشركين

---

(١) ٧ الروم.

في كل زمان ومكان، وتقول لهم كما جاء في خاتمة الآية الخامسة ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾.

ـ ونجد هذا الإحكام المعجز والتناسق الباهر أيضاً بين كلمات وجمل الآية الواحدة، فلو تأملنا كل آية على حِدة لوجدنا فيها إحكاماً مدهشاً واتِّساقاً كاملاً بين صدرها وذيلها.

ففي الآية الأولىٰ عرض الله سبحانه بعض الأدلة الدالة على وجوده ووحدانيته، فهو الذي خلق السموات والأرض، وأنزل من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة، وعَدَل بقوله تعالى: ﴿ فأنبتنا به حدائق ذات بهجةٍ ﴾ من الغيبة إلى التكلم ليؤكد اختصاص الفعل به سبحانه، فلا يقدر عليه غيره، ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ فكيف تشركون مع الله إلهاً آخر ﴿ أإلٰه مع الله ﴾ ومع وضوح هذه الأدلة وقوتها فالقوم يعدلون مع الله غيره، فيعبدون غيره سبحانه، ويجعلون له شريكاً بوصفه بصفة من صفات الله التي لا يتصف بها أحد غير الله، أو ينسبون له فعلاً من أفعال الله التي لا يقدر عليها غيره سبحانه لأنه وحده الخالق والمدبر.

الأرض والإنسان

وبيَّـن الله سبحـانه في الآية الثانية بعض الأدلة الأرضية القريبة من الإنسان والتي تتوقف على وجودها حياة الإنسان واستمرارها على الأرض، فهو سبحانه الذي جعل الأرض قراراً ليتمكن الإنسان من العيش عليها، فجعلها مكاناً صالحاً لاستقـرار الإنسان، ولقـد سَبَر الإنسان في العصر الحاضر أحوال كثير من الأجرام والنجوم القريبة من الأرض والبعيدة عنها بواسطة المركبات الفضائية والأقمار الصناعية وما اكتشف من آلات حديثة، فعرف نتيجة ذلك استحالة حياته على غير الأرض، بسبب عدم توفر أدنىٰ أسباب الحياة الإنسانية في هذه النجوم والأجرام، فبعضها لا يزال كتلة نارية ملتهبة وبعضها الآخر يسير في

فضاء لا هواء فيه ولا ماء، وبعضها تغلِّفه وتحيط به أطواق الجليد وجبال البَرَد، وبعضها لا يزال رتقاً لا تمطر سماؤه ولا تنبت أرضه.

وهذه المعرفة جعلت الإنسان يتمسك بجرم الأرض أكثر من قبل، ويدرك شدة حاجته إليها واستحالة عيشه على غيرها، وظهر بذلك عمق معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أمن جعل الأرض قرارا﴾، كما ظهرت حكمة تكرار هذا المعنىٰ في آيات كثيرة في معرض بيان فضل الله على الإنسان كقوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾[1]، وقوله أيضاً: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون﴾[3].

مرة أخرى أذكر القارىء الكريم بقوله تعالى آخر سورة النمل: ﴿قل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافلٍ عما تعملون﴾.

حاجز بين البحرين

كما بيَّن الله تعالى في هذه الآية أنه جعل في الأرض الأنهار الموزعة في جنباتها ونواحيها، وهي تحمل للإنسان ما تحمل من أسباب الخير والخصب والحياة، وأشارت الآية بعد ذلك إلى ما للجبال الرواسي من دور كبير في توازن الأرض واستقرارها بجانب الأنهار الجارية المتفجرة من سفوحها، ثم ذكرت الآية أن الله تبارك وتعالى جعل في الأرض بحرين من الماء، وأنه سبحانه بقدرته وحكمته جعل بين هذين البحرين حاجزاً ﴿وجعل بين البحرين حاجزاً﴾ والبحران هما: الماء العذب والماء الملح، لأنه سبحانه قال في سورة فاطر:

---

(١) ٢٢ البقرة.

(٢) ٥٣ طه.

(٣) ١٠ الأعراف.

﴿ وما يستوي البحران: هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائغ شرابه، وهذا مِلْح أُجاج، ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون ﴾[1]، وقال سبحانه أيضاً: ﴿ وهو الذي مَرَجَ البحرين هذا عَذْبٌ فُراتٌ وهذا مِلْحٌ أُجاج، وجعل بينهما برزخاً وحِجْراً محجوراً ﴾[2].

فما أعظم قدرة الله سبحانه الذي فصل بين الماء العذب في الأنهار وبين ماء الملح في البحار، مع أنهما يختلطان ويمتزجان، إذ من المعروف أن معظم الأنهار تصب في البحار، ومع ذلك يبقىٰ ماء الأنهار عذباً فراتاً سائغاً شرابه، ويبقىٰ ماء البحار ملحاً أجاجاً، فلا يطغىٰ ماء الأنهار العذب على ماء البحار المالح، ولا يؤثر أيضاً على نسبة ملوحته مع أنه يختلط به، وكذلك لا تطغىٰ مياه البحار المالحة على المياه العذبة ولا تؤثر في عذوبتها، وقد أصبح من الثابت علمياً أن استمرار الحياة على الأرض متوقف على بقاء واستمرار وجود هذا الحاجز الذي أقامه الله سبحانه بين البحرين، فلو فقدت مياه البحر ملوحتها، أو فقدت المياه العذبة عذوبتها لاختل نظام الحياة على وجه الأرض وتعذرت الحياة عليها، فثمة توازن دقيق أقامته القدرة الإلٓهية في الأرض بين المياه العذبة والمياه المالحة وجعلته المشيئة الإلٓهية والحكمة الربانية سبباً من أسباب استمرار الحياة على الأرض وضرورة من ضروريات العيش عليها، وإن أخشىٰ ما يخشساه أنصار المحافظة علىٰ البيئة من أخطار التلوث أن يؤدي التلوث الناتج عن سوء استعمال الإنسان المعاصر لما استحدثه من وسائل حديثة إلى اختلال التوازن الدقيق الذي جعله الله سبحانه في الأرض.

إن الإنسان لا يرى الحاجز الذي أقامته القدرة الإلٓهية بين البحرين

---

(١) ١٢ فاطر.

(٢) ٥٣ الفرقان.

ولكنه يحس بوجوده، ويستشعر آثاره في كل قطرة ماء عذبة ومالحة، فما أعظم نعم الله سبحانه على الإنسان، وإن هذا البرزخ من أكبر الأدلة الدالة على عظمة الله وكمال قدرته وعلمه وحكمته، كما أنه من أكبر الأدلة الدالة على وحدانيته سبحانه، فلا عجب أن يذكره الله سبحانه في عدة مواضع من التنزيل الحكيم تنويهاً بفضله العظيم على الإنسان، ودليلاً من أدلة وجوده سبحانه ﴿ مَرَجَ البحرين يلتقيان * بينهما بَرْزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذِّبان ﴾[1].

التفكر والتذكر

وبعد أن ختم الله تعالى الآية الثانية بقوله: ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ بيَّن في الآية الثالثة سبب جهلهم بسبب قلة تذكرهم، والتذكر لا يكون إلا بالتفكر، فالقوم لا يتذكرون لأنهم أعرضوا عن كل شيء يذكِّرهم بالله سبحانه، فلا يذكرونه إلا إذا استشعروا ضعفهم واضطرهم البلاء والضعف والافتقار إلى اللجوء إليه سبحانه ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض؛ أإلَه مع الله قليلاً ما تذكرون ﴾ فعندما يستشعر الإنسان الصحة والقوة والغنىٰ يبتعد عن الله وينسىٰ فضله عليه، ولا يذكره إلا عندما يشعر بضعفه وفقره إليه سبحانه، وقد واجهنا الله تعالى بهذه الحقيقة في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وضرب الأمثلة العملية لتقريب هذه الحقيقة إلينا، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ وإذا مسَّكم الضر في البحر ضلَّ من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾[2]، وقوله تعالى أيضاً: ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر، حتىٰ إذا كنتم في الفُلْك وجَرَيْن بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصفٌ، وجاءهم الموج من كل

---

(١) ١٩ - ٢١ الرحمن.

(٢) ٦٧ الإسراء.

مكان، وظنُّوا أنهم أُحيط بهم دَعَوُا الله مخلصين له الدين: لئن أنجيتنا من هذه لنكونَنَّ من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم، متَاعَ الحياة الدنيا، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾[1].

أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر

وذكَّر الله الإنسان في الآية الرابعة ببعض حالات البلاء والضعف التي تضطره إلى اللجوء إلى الله سبحانه، كأن يتعرض إلىٰ خطر الضياع في أعماق البحر أو البر، أو يتعرض لخطر الجدب والجوع في حال انقطاع الأمطار ﴿ أمَّن يهديكم في ظلمات البر والبحر، ومن يرسل الرياح بُشْراً بين يدي رحمته ﴾ وفي مثل هذه الحالات ينسىٰ كثير من الناس فضل الله عليهم في هدايتهم إلى أسباب السلامة والنجاة عندما يضلُّون في أعماق البر أو البحر، فينسبون الهداية إلى غيره سبحانه وتعالى من مخلوقاته التي خلقها، وينسون فضل الخالق، فبعضهم يرد فضل الهداية إلى النجوم، وبعضهم يردها إلى الآلات المستحدثة، وكل ذلك من مظاهر الشرك بالله سبحانه الذي خلق النجوم ليهتدي بها الإنسان في البر والبحر، والذي أبدع النواميس والقوانين التي تمكن الإنسان بواسطتها من صنع أسباب وآلات الهداية المختلفة، فالفضل لله سبحانه أولاً وآخراً، كما أنَّ بعضهم ينسىٰ فضل الله عليه بإنزال المطر فينسب إنزاله إلى الأنواء وتغير اتجاه الرياح، مع أنه سبحانه هو الذي يصرِّف الرياح ويخلق الأنواء، فلا تنزل قطرة ماء إلا بمشيئته وقدرته، ولهذا ختم الله تبارك وتعالى هذه الآية بقوله: ﴿ أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ وجاء في الحديث القدسي الذي رواه زيد بن خالد الجهني قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في

---

(١) ٢٢ - ٢٣ يونس.

إثر السماء ـ المطر ـ كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنَوْء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[1].

وفي الآية الخامسة يتحدَّى الله تبارك وتعالى المشركين فيطالبهم بدليل واحد يدل على صدقهم في كفرهم وشركهم، بعد أن يذكرهم بأنه سبحانه وحده القادر على بدء الخلق وإعادته مرة ثانية بعد الموت، وأنه سبحانه وحده الذي يرزقهم من السماء ومن الأرض ﴿ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده، ومن يرزقكم من السماء والأرض، أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾.

تنبيه

وأختم الحديث عن هذه الآيات الخمس بتنبيه القارىء الكريم إلى دقة كلمات الآيات وشدة تلاؤمها وانسجامها مع معانيها، فقد خصَّص الله تبارك وتعالى الآية الأولى والثانية للحديث عن خلق الكون وتهيئته لحياة الإنسان، وقد تم الخلق واكتمل الإعداد فجاء التعبير عن هذا المعنىٰ في الآيتين بصيغة الفعل الماضي: خلق السماوات، أنزل لكم، فأنبتنا به حدائق، جعل الأرض قراراً. بينما جاءت الآيات الثلاث الأخيرة لتتحدث عن فضل الله سبحانه المستمر على الإنسان بإمداده بأسباب استمرار حياته ووجوده على الأرض، والإمداد كان ولا يزال ولما ينقطع بعد أو يتوقف، فانقطاعه أو توقفه يؤدي إلى انقطاع وتوقف حياة الإنسان على الأرض، فجاء الحديث عن هذا المعنىٰ المتجدد والمستمر بصيغة توافق حال التجدد والاستمرار، وهي صيغة الفعل المضارع:

---

(١) صحيح مسلم.

يجيب المضطر، يكشف السوء، يجعلكم خلفاء الأرض، يهديكم في ظلمات البر والبحر، يرسل الرياح، يبدأ الخلق ثم يعيده، يرزقكم من السماء.

وبدء الخلق وإعادته كان ولا يزال متجدداً ومستمراً في بنية الإنسان الجسدية وفي عالم النبات المحيط بالإنسان في كل مكان.

عالم الغيب المستور

إن ابتداء الخلق دليل على القدرة على إعادته، وفي الآية الكريمة ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ تمهيد للانتقال بآيات السورة من الحديث عن العالم المشاهد المنظور إلى الحديث عن العالم المغيَّب المستور، عالم الحياة الثانية يوم القيامة وإعادة الخلق بعد الموت، وهو ما استأثر الله سبحانه بعلمه مما يدل على كمال علمه سبحانه ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴾[1].

مكابرة وعناد

إنَّ بعث الناس من قبورهم بعد موتهم وإعادة الحياة إليهم يوم القيامة للحساب والجزاء أعظم قضايا عالم الغيب المستور، وأشدها ارتباطاً بحياة الإنسان في عالم الشهادة المنظور. وقد عانىٰ رسول الله ﷺ معاناة شديدة وكبيرة من أجل تقرير هذه القضية وتقريبها إلى قلوب الناس وأفكارهم، ليصدِّقوا بها ويؤمنوا بحتمية حدوثها ووقوعها، فعندما كان ﷺ يحدِّث المشركين عن يوم القيامة وما سيكون فيه ويدعوهم إلى الإيمان به والإذعان بحقائقه كان المشركون يزدادون غلظة إلى غلظتهم وخشونة إلىٰ خشونتهم، فيغلظون للنبي ﷺ القول، ويردون

---

(١) ٦٥ النمل.

عليه بعناد ومكابرة وخشونة وجفوة، وقد تبلّدت أحاسيسهم الفكرية، وتسعَّرت أحقادهم النفسية ﴿ وقال الذين كفروا أإذا كنَّا تراباً وآباؤنا أإنَّا لَمُخْرَجُون * لقد وُعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل، إنْ هذا إلا أساطير االأولين ﴾[1]، ويطالبون النبي ﷺ أن يأتيهم بهذا الذي يعدهم به ﴿ ويقولون متىٰ هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾[2].

وهم غافلون عن فضل الله عليهم بتأخير العقاب عنهم لعل رحمة الله أن تدركهم فتلين قلوبهم وتنقاد وتذعن لله رب العالمين ﴿ وإنَّ ربك لذو فضلٍ علىٰ الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون * وإنَّ ربَّك ليعلم ما تكنُّ صدورهم وما يعلنون * وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ﴾[3].

تثبيت ومواساة

وعندما تتحدث الآيات الكريمات عن موضوعات يوم القيامة وتصور عناد المشركين ومكابرتهم، تلتفت الآيات التفاتات رائعة لطيفة ورقيقة بأسلوب معجز مدهش إلى النبي ﷺ، تثبته في وجه عنادهم ومكابرتهم، وتواسيه بسبب ما يلقىٰ منهم ﴿ ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضَيقٍ مما يمكرون ﴾[4] النمل ﴿ إنَّ ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم * فتوكلْ على الله إنك على الحق المبين * إنك لا تسمع الموتى ولا تُسمع الصُّمَّ الدعاء إذا ولَّوا مُدْبرين * وما أنت بهادِ العُمْي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾[5].

---

(١) ٦٧ ـ ٦٨ النمل.
(٢) ٧١ النمل.
(٣) ٧٣ ـ ٧٥ النمل.
(٤) ٧٠ النمل.
(٥) ٧٨ ـ ٨١ النمل.

لقد صُمَّت آذانهم عن سماع الحق، وعميت بصائرهم عن إدراك الحقيقة حتىٰ كان شأنهم شأن الموتىٰ، فكيف يسمعون كلام النبي ﷺ سماع إجابة، وإنَّ ذلك يظهر فضل الذين استجابوا لدعوة رسول الله ﷺ وآمنوا بآيات الله تبارك وتعالى وانقادوا لدينه وشرعه، فهم بهذا مسلمون وهم الذين تفضَّل الله عليهم بالسلام كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿ وسلامٌ على عباده الذين اصطفىٰ ﴾. وإن القارىء الكريم للآيات التي تثبِّت النبي ﷺ وتواسيه لا يستشعر عند قراءتها أي تغير في الموضوع، ولا يفطن إلىٰ أي استطراد وخروج عنه، بل إنه على العكس يستشعر عند قراءته لهذه الآيات الكريمات المخصوصات بخطاب النبي ﷺ أنها جزء من الموضوع وضرورة من ضروراته، وكل ذلك بسبب الأسلوب المعجز المدهش الذي تفرَّد به كلام الله تبارك وتعالى.

تناقض وتعارض

وبعد أن تقرر الآيات الكريمات اختصاص الله سبحانه بعلم الغيب، وأنه سبحانه وحده الذي يعلم وقت البعث والنشور ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله، وما يشعرون أيَّان يبعثون ﴾ تبين التعارض والتناقض في موقف الكافرين بيوم القيامة، فهم يكثرون السؤال عنها، ويلحون لمعرفة وقتها، وفي الوقت نفسه يشكون في حقيقتها وينشغلون عن الاستعداد لها، ﴿ بل ادَّارك علمهم في الآخرة، بل هم في شك منها، بل هم منها عمون ﴾[1]. وأصل كلمة ﴿ ادّراك ﴾ تدارك، أدغمت التاء في الدال، وجيء بهمزة الوصل ليمكن الابتداء بالساكن، ومعنى تدارك، تتابع وتلاحق.

ومع تتابع علمهم وتلاحقه بسبب كثرة سؤالهم عن وقت قيام

(١) ٦٦ النمل.

الساعة، فقد ضلَّ علمهم وغاب في الآخرة، فليس لهم فيها علم، لأن معرفة وقت قيام الساعة مما استأثر الله سبحانه به، ولهذا صُدّرت الآية بحرف الإضراب (بل) ثم صُدِّرت به الجملة الثانية في الآية ﴿ بل هم في شك منها ﴾ لتبين تناقضهم وتعارضهم، فهم لا يؤمنون بيوم القيامة، ويشكون في وقوعها، فلماذا يسألون عن وقتها؟! ثم جاء بحرف الإضراب مرة ثالثة ﴿ بل هم منها عمون ﴾ وعمون جمع عَمٍ، وهو مَنْ كان أعمى القلب، والمراد بيان جهلهم بيوم القيامة على وجه لا يهتدون إلى شيء من دلائلها، لانصرافهم التام إلى الاستغراق في شؤون الدنيا وتحقيق شهواتهم وأهوائهم فيها، كما مر معنا في قوله عزَّ وجلّ: ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾[1] وقوله سبحانه أيضاً: ﴿ كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ﴾[2].

أشراط يوم القيامة

إنَّ وقت قيام الساعة مما استأثر الله سبحانه بعلمه، فلم يطلع عليه مَلَكاً مقرَّباً ولا نبياً مرسلاً، فهو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه، والذي ذكره الله في آية سورة النمل التي سبق ذكرها ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيبَ إلا الله، وما يشعرون آيان يبعثون ﴾ فقد انتهىٰ علم وقت الساعة إلى الله وحده ﴿ يسألونك عن الساعة أيَّان مرساها. فيمَ أنت من ذِكْراها * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذرُ من يخشاها ﴾[3] ﴿ يسألونك عن الساعة أيَّان مرساها؟ قل إنما علمها عند ربي لا يُجلِّيها لوقتها إلا هو، ثَقُلت في السموات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفي عنها، قل إنما علمُها عند الله ولكن أكثر

---

(١) الروم ٧.

(٢) ٢٠ ـ ٢١ القيامة.

(٣) ٤٢ ـ ٤٥ النازعات.

الناس لا يعلمون ﴾[١] ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله، وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾[٢].

لكنه سبحانه جعل ليوم القيامة ووقت الساعة أشراطاً وعلامات تتقدم عليها كما قال عزّ شأنه: ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، فأنىٰ لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾[٣]. وقد أخبر رسول الله ﷺ عن كثير من علامات الساعة وأشراطها، ووقعت أكثر علاماتها الصغرى تماماً كما أخبر ﷺ، إلا أن علاماتها الكبرى التي تكون بين يدي الساعة وقريباً منها لم يقع شيء منها بعد.

وقد جاء ذكر بعض علامات الساعة الكبرىٰ في القرآن الكريم تارة تصريحاً وتارة أخرى إشارة وتلميحاً، وفي سورة النمل جاء ذكر إحدى علامات الساعة الكبرى تصريحاً وذلك في سياق الآيات التي تتحدث عن عالم الغيب المستور، قال تعالى: ﴿ وإذا وقع القولُ عليهم أخرجنا لهم دابةً من الأرض تكلمهم أنَّ الناسَ كانوا بآياتِنا لا يوقنون ﴾[٤].

إغلاق باب التوبة

إن علامات الساعة الكبرى أحداث كبيرة وعظيمة خارقة لعادات الناس ونواميس الكون في الحياة الدنيا لأنها تأتي مقدمة لأعظم الأحداث الكونية وأشدها هولاً، ألا وهو قيام الساعة، فعندما تقوم الساعة تتغيَّر النظم والنواميس الكونية كلها، الأرضية والسماوية، فالسماوات تتشقق وتطوى، والنجوم تنكدر وتزول عن مواقعها، والأرض

---

(١) ١٨٧ الأعراف.

(٢) ٦٣ الأحزاب.

(٣) ١٨ محمد.

(٤) ٨٢ النمل.

تتغير معالمها، فتنسف جبالها، وتمتلىء وديانها ووهادها، والشمس تُكوَّر أشعتها ويزول ضوءها، ومبدأ هذا التغيير الكلي لجميع النظم الكونية يكون في حدوث علامات الساعة الكبرى، إنَّ هذه العلامات تغيير جـزئي في النظم والنواميس الكونية، يؤذن بقرب حدوث التغيير الكلي للنظم والنواميس الكونية.

وعندما يقع الخلل في النظم والنواميس الكونية ويحدث التغير الجزئي وتقع العلامات الكبرى ليوم القيامة، ينكشف الغيب المستور لجميع الناس، فيسارع الكفار والمشـركون إلى التصـديق والإذعان والإيمان، ولكن إيمانهم هذا جاء متأخراً عن وقتـه، فلا يقبله الله سبحانه، لأنه سبحانه قدر بحكمته ومشيئته أن يغلق باب التوبة والإيمان عندما يبدأ الغيب المستور في الانكشاف والظهور، لأن إيمان الناس في ذلك الوقت سيبنىٰ على الأمور المكشوفة المشاهدة، وهو غير مقبولٍ عند الله، لأنه يشبه إيمان الجاحدين والمكابرين يوم القيامة عندمـا يعرضون على النار، ﴿ ولو ترىٰ إذ وُقفوا على النار فقالوا: يا ليتنا نُردُّ ولا نكذبَ بآيات ربنا ونكونَ من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون ﴾[(١)].

وقد جاء التصريح بعدم قبول إيمان من يؤمن بهذا الوقت في قوله تعالى: ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتي ربك، أو يأتي بعض آيات ربك، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبـل أو كسبت في إيمانهـا خيراً، قـل انتظروا إنـا منتظرون ﴾[(٢)]، وما ذكر في أول الآية سيكون يوم القيامة، وما ذكر بعد ذلك سيكون من علامات القيامة الكبرى وبين يديها، قال ابن كثير رحمه

(١) ٢٧ ـ ٢٨ الأنعام.
(٢) ١٥٨ الأنعام.

الله في تفسير هذه الآية: يقول تعالى متـوعداً للكافرين والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادين عن سبيله: ﴿هل ينـظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك﴾ وذلك كائن يوم القيامة، ﴿أو يأتي بعض آيات ربك، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها، حين يرون شيئاً من أشراط الساعة، كما قال البخاري في تفسير الآية، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل» ثم قرأ هذه الآية[1].

وجاء في الحديث الشريف أيضاً عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إن الله عزّ وجلّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يـده بالنهـار ليتوب مسيء الليـل، حتى تـطلع الشمس من مغربها»[2].

دابة الأرض

إن خـروج الشـمس من مغربها آية كبرىٰ من آيات الله سبحانه تدل على عظيم قدرته، كما تدل على أنَّ هذه النواميس والقوانين الكونية ليست أمراً لازماً ومحتماً، فالله سبحانه الذي جعلها في هذا الكون قادر على إبطالها ومخالفتها، وتدل هذه الآيـة أيضاً على صحـة رسالـة النبي ﷺ وصدقه في كل ما أخبر عنه، وهي آية صامتة تأتي بعدها في نفس اليوم والناس لمّا يفيقوا بعد من دهشتهم وحيرتهم وخوفهم وهم يشاهدون أمراً جسيماً عظيماً، الآية الناطقة، تلك هي دابة الأرض التي

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير والحديث في صحيح البخاري.

(٢) صحيح مسلم.

تكلم الناس بأفصح لسان وأكمل بيان لتكشف لهم ما يخفونه في قرارة نفوسهم وخبيئة ضمائرهم وصدورهم، فتجلو وجه المؤمن وتقول له أنت مؤمن، وتطبع على وجه الكافر بخاتم الكفر وتقول له: أنت كافر، حتىٰ إن الناس ينادي بعضهم بعضاً بصفة الإيمان وبصفة الكفر، وهي الدابة التي أخبر الله سبحانه عنها في آية سورة النمل التي ذكرتها سابقاً ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابةً من الأرض تكلمهم أنَّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾.

والمراد من قوله: ﴿ وقع القول ﴾ وجب القول، والقول الكلام المقول، أطلق المصدر على المفعول، وهو ما نطق به القرآن الكريم من أمر يوم القيامة وما فيها، وجواب الشرط ﴿ أخرجنا لهم دابة من الأرض ﴾.

وقد أخبر النبي ﷺ عن دابة الأرض في عدة أحاديث منها ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحىٰ، أيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً» ولعل مراد النبي ﷺ أن أول الآيات الكبرى التي يبدأ بها التغير والخلل في النظم والنواميس الكونية هي خروج الشمس من مغربها ودابة الأرض، ولا شك أنهما من الآيات العظمىٰ وسيراهما الناس ويعرفونهما كما قال جلّ وعلا في آخر آيات سورة النمل: ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياتِه فتعرفونها، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن

بالخاتم، وتخطم أنف الكافر بالعصا، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر»[1].

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطّلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تكون قبلها عشر آيات، فذكر: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[2].

والجدير بالذكر هنا أن بعض الكتاب المعاصرين ذهبوا إلى تأويل كلمة (الدابة) الواردة في هذه النصوص، وصرفوها عن معناها الحقيقي إلى معان بعيدة غير مرادة ولا محتملة، فقالوا المقصود بالدابة هذه بعض المخترعات التي توصل إليها الإنسان حديثاً كالصواريخ والأقمار أو أجهزة التسجيل الصوتية وأجهزة الرائي والتصوير، وقد سبق لسيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله أن رد مثل هذه التأويلات فكتب رداً على أصحابها فقال: أما أن الدابة التي ذكر القرآن خروجها قرب قيام الساعة هي هذه الصواريخ والأقمار، فأمر لا يسلَّم لقائله، ذلك أن الحقيقة الشرعية لا تُترك إلى المجاز إلا لصارف يقيني قطعي يضطر الناظر فيها إلى التأويل، وما لم يوجد هذا الصارف فالحقيقة هي المعتمدة، وهي المأخوذ بها في الفهم، ولا يصح العدول عنها، وإلا لبطلت المعاني الشرعية الحقيقية بالمجازات، وهذا معناه إلغاء النصوص بالجملة.

والدابة في لغة العرب هي الحيوان الذي يدب على قوائمه، وهذا الاصطلاح العرفي الحقيقي، تضمحل أمامه التأويلات الأخرى،

(١) أخرجه الترمذي، وحسنه، وأحمد وابن ماجه والحاكم والبيهقي.

(٢) أخرجه مسلم وأصحاب السنن.

ويستحيل أن يفوت النبيَّ وأصحابَهُ وتابعيهم عليه وعليهم الصلاة والسلام، ما ليست حقيقة من الفهم، أو أن يفهموا من الآيات خطأً أو أن يتصوروا منها غلطاً[1].

مشاهد من يوم القيامة

وعرضت آيات سورة النمل في ختام السورة بعض مشاهد يوم القيامة، ففيه يجمع الله سبحانه المكذبين بآياته أفواجاً، ويساقون إلى الحساب ليواجهوا جريمتهم الكبرى، وهي مسارعتهم إلىٰ تكذيب آيات الله سبحانه قبل أن يتأملوا فيها، ويتدبروا معانيها، ويحيطوا بها علماً ليروا ما فيها من دلائل قدرة الله وعظمته ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون. حتىٰ إذا جاؤوا قال أكذَّبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً، أم ماذا كنتم تعملون * ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾[2].

وكيف ينطقون وقد قامت حجة الله البالغة عليهم، فقد جحدوا كل آياته وأدلة وحدانيته وقدرته، ولعل من أكثر هذه الآيات وضوحاً ومن أعظمها دلالة آية الليل والنهار، وما فيها من نظامٍ محكمٍ ظاهرٍ يستطيع كل إنسان بأدنىٰ نظر وأقلِ تفكير وتأمل أن يستدل به علىٰ وحدانية الخالق سبحانه ﴿ ألم يرَوا أنّا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مُبْصراً، إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون ﴾[3].

ويوم القيامة هو يوم الفزع الأكبر، وخاصة عندما ينفخ في الصور، وتسير الجبال وتزال عن مواقعها، حتىٰ إن الناظر إليها يحسبها لصلابتها ولضخامتها ثابتة جامدة، وهي في الحقيقة تسير سير السحاب في جو

(١) ردود على أباطيل للشيخ محمد الحامد رحمه الله ص ١٤٥.
(٢) ٨٣ ـ ٨٥ النمل.
(٣) ٨٦ النمل.

السماء ﴿ ويوم يُنفخ في الصُّور ففزع مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض إلا من شاء الله، وكلٌّ أتَوْه داخِرين * وترى الجبال تحسبُها جامدةً وهي تمرُّ مَرَّ السحابِ، صُنْعَ الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾[1].

ولا يستشعر الأمن من الفزع الأكبر في هذا اليوم إلا من كان مؤمناً صالحاً، عاملاً بالطاعات مجتنباً المعاصي والسيئات ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها، وهم من فزعٍ يومئذٍ آمنون ﴾[2]، ذلك هو ميزان الفضل الإلّهي الذي قال الله عنه: ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾.

وأما ميزان العدل الإلّهي فهو للمشركين والكافرين ﴿ ومن جاء بالسيئة فكُبَّتْ وجوههم في النار، هل تُجزَوْن إلا ما كنتم تعملون ﴾[3] وهو الذي قال الله عنه أيضاً: ﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، وهم لا يظلمون ﴾[4].

وعندما يصل الحديث إلى ميزان الفضل والعدل الإلّهي تتجه الآيات الكريمة لتتكلم على لسان رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، كأنه عليه الصلاة والسلام أمر أن يقول لهم ذلك بعد ما بيَّن المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة، إشعاراً بأنه عليه الصلاة والسلام قد أتم الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وما عليه بعد ذلك إلا أن يستغرق في عبادة ربه ﴿ إنما أُمرتُ أن أعبد ربَّ هذه البلدةَ الذي حرمها، وله كل شيء، وأُمرتُ أن أكون من المسلمين * وأن أتلوَ القرآنَ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلَّ فقل إنما أنا من المنذرين ﴾[5]. ومادام

---

(١) ٨٧ ـ ٨٨ النمل.

(٢) ٨٩ النمل.

(٣) ٩٠ النمل.

(٤) ١٦٠ الأنعام.

(٥) ٩١ ـ ٩٢ النمل.

رسول الله ﷺ أُمر بعبادة الله تبارك وتعالى الذي حرم مكة وشرَّفها وعظَّمها، والذي له كل شيء خلقاً وملكاً وتدبيراً، فغير النبي ﷺ أولىٰ أن يكون مأموراً بهذا، فكل المكلفين مخاطبون بما أمر به رسول الله ﷺ، وكلهم مأمورون بعبادة الله، والمواظبة على تلاوة القرآن الكريم مع تدبر آياته وتأمل معانيه، حتىٰ تنكشف لهم حقائقه وتظهر لهم أدلة صدق رسول الله ﷺ، فالتكليف بعبادة الله تبارك وتعالى والإذعان لدينه وشرعه لا يسقط عن أحد من الناس، فهم مكلفون بعبادة الله وطاعته حتى ينزل بهم الموت، ومخاطبون بما خوطب به ﷺ.

والقول بسقوط التكليف عن بعض الناس لعلو مكانتهم وسمو منزلتهم زندقة وكفر.

الخاتمة

والقرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للنبي ﷺ، منذ أن بدأ نزوله على النبي ﷺ في البلد الحرام، وسيبقى أيضاً معجزة خالدةً لدين الإسلام على الدوام، يؤيد صدقه، ويحفظ أصوله، يهدي إليه الحائرين، ويستضيء بنوره السائرون على درب أكرم النبيين وخاتم المرسلين عليه أفضلُ الصلاة وأتم التسليم. فلا عجب أن يكون التركيز في ختام سورة النمل على تلاوة القرآن الكريم ﴿ وأن أتلو القرآن﴾ لأنها سورة المعجزة والإعجاز، ولا عجب أن يكون النبي ﷺ أول المخاطبين المكلفين بتلاوة القرآن الكريم، مع أن قلبه الشريف كان أول مصحف للقرآن الكريم في الأرض ﴿ نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين ﴾[1] ومن فمه الشريف سمع الناس القرآن الكريم وتلقوا رسالة رب العالمين، ومع كل هذا أُمر ﷺ بتلاوة القرآن الكريم، لأنه المعجزة الكبرى التي أيده الله سبحانه بها. اقرأ يا أخي المسلم القرآن الكريم وتدبر آياته، فهو معجزة لنبيك ﷺ كبرى، وكرامة لك عظمى أكرمك الله سبحانه بها، اتل القرآن الكريم دائماً لتفوز بالكرامة في يوم القيامة، ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أصحابه وعباده المصطفين الأخيار وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله أولاً وآخراً.

(١) ١٩٣ ـ ١٩٥ الشعراء.

مراجع الكتاب

- كتب السنة المعروفة.
- تفسير ابن كثير ومختصره للصابوني.
- فتح القدير للشوكاني.
- تفسير البيضاوي.
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي.
- في ظلال القرآن لسيد قطب.
- التفسير الكبير للفخر الرازي.
- التفسير الحديث لدروزه.
- الجواهر في تفسير القرآن الكريم لطنطاوي جوهري.
- دائرة معارف وجدي.
- قصص الأنبياء للنجار.
- دراسات تاريخية من القرآن الكريم لمحمد بيومي مهران.
- مجلة المعرفة المجلد التاسع.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي.
- ردود على أباطيل للشيخ محمد الحامد رحمه الله، طبعة قطر.



الفهـــرس

مِنْ مَوَاضِيعِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ

سلسلة دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

صدر منها:

١ ـ النبي وأزواجه في سورة الأحزاب

٢ ـ المعجزة والإعجاز في سورة النمل

٣ ـ العواصم من الفتن في سورة الكهف

اقرأ للمؤلف

السيـــدة عائشـــة

أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام

وهو من أحسن ما كتب في سيرة السيدة عائشة
رضي الله عنها
وقد صدر في سلسلة أعلام المسلمين التي تصدرها دار القلم بدمشق